الجمهوريّة الجزائرية الدِّيمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة مولود معمري تيزي وزو
كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة
قسم اللّغة والأدب العربيّ

مذكـــّرة لنيـــل شهادة الماجستير

التّخصص: اللّغـــة والأدب العـــــربيّ
الفـــــرع: سيميائيات وتحليل الخطاب

إعداد الطّالب: إيدير إبراهيم

الموضوع:

القصديّة في "الأدب الكبير" لِابن المقفّع
-دراســـــــــة تداوليّـــــــة-

لجنة المناقشة:

د/ مصطـــفى درواش: أستاذ محاضر بجامعة مولود معمري تيزي وزو.....رئيســـــــا
أ. د/ آمنـــــة بلعلـــى: أستاذة التعليم العالي جامعة تيزي وزو.....مشرفة ومقررة
د/حمو الحاج دهبيـــة: أستاذة مكلفة بالدروس/ مكلفة بالبحث جامعة تيزي-وزو.....عضوا ممتحنا
د/ عمـــــــر بلخيـــر: أستاذ محاضر بجامعة تيزي-وزو.....عضوا ممتحنا

تاريخ المناقشة:.....

بسم الله الرّحمن الرّحيم

﴿...وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ﴾.

سورة ص، الآية 20

كلمة شكر

أتوجّه بالشّكر الجزيل إلى الأستاذة الفاضلة الدّكتورة آمنة بلعلى

كانت منبعا للعلم والمعرفة والبحث،

أشكرها لمتابعتها لهذا البحث.

إهـــــــداء

إلى كلِّ من سار على خطى معلِّم البشريّة محمّد (ص) وساهم في الحفاظ على سنّته.

إلى روح اِبن المقفّع الذي قُتل ظلما.

إلى روح أبي الطّاهرة، رحمك الله.

إلى من آنستني صحبتُها وضلّلتني مودّتُها وآزرتني قوّتُها.....

إلى من كانت تربي في جدِّي وفي لعبي وراحتي في الرّوح والتّعب...

إلى من يصدقني قولُها وإن اِحتدّ ويخلص لي نصحُها وإن اِشتدّ.....

إلى أمِّي، فليحفظك الرّبّ.

إلى إخوتي وأخواتي.

إلى جمال وسيد علي الّذين نفضا عنّا القلّة والعلّة والملّة.

إلى جميع من شجّعني على إتمام هذا البحث.

إلى طالب العلم.

إبراهيم

الفهـــــــرس

مقدمة..... أ

الفصل الأوّل: مقصدّية الخطاب الاِفتتاحي

1-تقديم المدوّنة..... 7

1-1-دلالة العنوان..... 10

1-2- وظيفة العنوان..... 11

2-الاِستراتيجية التّخاطبيّة..... 14

2-1- المرسل..... 17

2-2- المرسل إليه..... 29

الفصل الثّاني: تجلّيات المقاصد الموضعيّة

1-اِستراتيجية قصد الإخبار..... 35

1-1-خروج الخبر عن معناه الأصلي..... 67

1-2- معاني الطّلب 68

1-3- خروج الأمر والنّهي عن المعنى الأصلي..... 69

1-3-1- النّصح والإرشاد..... 70

1-3-2- التّرغيب..... 75

1-3-3- التّحذير..... 76

2-القرينة والإشارة..... 79

2-1- الضمائر..... 80

2-2- الحروف..... 83

3-قصد الإقناع وآلياته..... 85

3-1- حجّة المثل..... 90

3-2- الحجّة الصّناعيّة..... 91

3-3- الرّوابط الحجاجيّة..... 94

4- الإحالة (الاِفتراض المُسبق)..... 98

الفصل الثالث: دور السّياق في الكشف عن المقاصد الإجماليّة

1-السّياق الاِجتماعي وعلاقته بالمقاصد..... 110

2- السّياق السّياسي وعلاقته بالمقاصد..... 112

3- القول المضمر..... 117

الخاتمة..... 129

قائمة المصادر والمراجع..... 136

مقدِّمـــــــة:

الحمد لله وكفى، والصّلاة والسّلام على رسوله المصطفى، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

نسعى من خلال هذا البحث إلى التّعريف بنمط جديد من الدِّراسات اللّغوية في تعاملها مع النّصوص الأدبيّة، إذ تشكِّل هذه الدِّراسات نظرة جديدة على ظاهرة التّواصل البشريِّ. إنّ التّيار التّداولي بمختلف تفرّعاته لم يصل بعد في بنائه إلى درجة يتّضح فيها وتتبيّن معالمه، فمن الصّعب أن تصل نظريّة كهذه إلى وضع معالم وأسس ثابتة واضحة، لأنّها اِمتزجت في نشأتها وعلوم كثيرة كالفلسفة والمنطق واللِّسانيات فهو منهج يعتمد في دراسته على الاِستعانة بالعناصر اللِّسانية وغير اللِّسانية.

إنّ المنهج التّداولي يسعى إلى دراسة علاقة اللّغة بمستعمليها، كما يهدف إلى دراسة الخطاب والبحث عن النِّظام أو العمليات التي تساهم في تحويل اللّغة إلى خطاب منتج في وضعية معينة ومحدّدة، كما أنّه يكشف عن طبيعة العلاقة بين اللّغة والسِّياق بمفهومه الواسع الاِجتماعي والثّقافي والنّفسي.

ويعدّ السِّياق مجموعة من العوامل اللّغوية وغير اللّغوية التي تتدخّل أثناء اِستعمال اللّغة، فهو إذن مجموع الشّروط الاِجتماعية التي تؤخذ بعين الاِعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين اِستعمال اللّغة والسّلوك الاِجتماعي، كما أنّه يمثِّل المعطيات المشتركة بين المتكلِّم والمتلقِّي وما يجمعهما من وضعيات ثقافيّة نفسيّة وتجارب ومعارف سابقة.

نسعى في بحثنا هذا إلى تزويد الباحث في مجال تحليل الخطاب بآليات واضحة وإثراء رصيده المنهجيِّ في تحليله للخطاب مهما كان مصدره وطبيعته. وقد اِعتمدنا في ذلك على نتاج تراثيٍّ أدبيٍّ تمثّل في "**الأدب الكبير**" **لاِبن المقفّع** وكان اِختيارنا له باِقتراح من الأستاذة المشرفة وذلك للاِعتبارات الآتية:

– تجاوز الدّراسات الكلاسيكية التي أُنجزت في أدب اِبن المقفّع المتمثِّلة في الدّراسة المضمونيّة أو الأسلوبيّة أو الدّراسة الإيديولوجية القائمة على محاكمة هذا الكاتب في شأن زندقته.

– أمّا الاِعتبار الثاني فلأنّ اِبن المقفّع عاش فترتين مختلفتين ونقصد بهما الفترة الأمويّة والفترة العباسيّة، وما يمكن أن يحدثه هذا التّغيير في الجانبين الفكري والمعرفي لهذا الرّجل.

– أمّا الاِعتبار الثالث فإنّ هذه الشّخصية وإن تناولها الكثير من الدارسين والنّقاد إلاّ أنّ الغموض مازال يكتنف بعض جوانبها، بل وظلّت غامضة إلى حدٍّ بعيد، ولم تستقر بعد في خيالنا على صورة واحدة، خاصة ما له علاقة بالأدبين **الكبير والصغير**.

وسنحاول في دراستنا هذه اِكتشاف ما تحمل هذه النّصوص التّراثية من لمسات تشير إليها الدّراسات الحديثة في تداوليات الخطاب.

وقد اِصطفينا كتاب **الأدب الكبير** لفنِّية نثره وبراعة أسلوبه وصدق حكمته وذيوع صيته وما يحمله من رؤًى وأفكار في الدّراسات الاِجتماعية، لنحاول بعد ذلك تتبّع نصوص اِبن المقفّع لاِستكشاف مقاصده واِستنطاق علامات هذه النّصوص، لأنّ القراءة الاِستنطاقيّة تعمل على تحرِّي العلاقات النّصية والرّموز على أساس مكوناته الدّاخلية والخارجيّة.

إنّ القراءة الأولى لهذا الكتاب تجعلنا نقدِّم التّساؤلات التّالية:

– ما هي المقاصد التي ينطوي عليها كتاب **الأدب الكبير**؟

– ما علاقة المقدِّمات الاِستهلاليّة بنصوص هذا الكتاب؟

– هل سيكشف العنوان "**الأدب الكبير**" الذي يمثّل العلامة المفتاح عن مضمون نصوص الكتاب، أو هل ستكشف قصدية العنوان على نفس المقاصد التي سنكشفها في نصوصه، وما علاقتها بالسِّياق التّاريخي الذي كُتب فيه الكتاب؟

– ما هي الخلفيات الإيديولوجيّة والثّقافيّة التي تتحكّم في **الأدب الكبير**؟

لقد جعلَنا العنوان المفتاح "**الأدب الكبير**" نتعلّق بالكتاب وبشخصيّة صاحبه الذي يدافع عن الحقِّ وصاحبِه ويؤسِّس لفكر سياسيٍّ أخلاقيٍّ، إذ يُخضع الأمور كلَّها لسلطان العقل حتى أدّى به ذلك ليُعتبر زندقيا، ربما اِنعكس فكرُ اِبنِ المقفّع في كتابه هذا.

قسّمنا بحثنا هذا إلى ثلاثة فصول، نسعى في الأوّل والموسوم بـ: **مقصديّة الخطاب الاِفتتاحي** إلى التّعرف على مقاصد النّص الاِفتتاحي وذلك بمحاولة اِستكشاف رموز **الأدب الكبير**، بشرح العنوان وعلاقته بالعناوين الفرعيّة داخل نصوصه، كذلك علاقة هذه العناوين فيما بينها وكيف تؤدِّي السّيرورة الدّلالية محاولين بذلك التّعرف على العمليّة التّواصليّة بين المخاطِب والمخاطَب، وما هي الاِستراتجية التي يعتمدها اِبن المقفّع لإيصال أفكاره، وسننظر إلى المعتقدات والحالات التي أدّت إلى الرّغبة في الكتابة.

بالتالي، فهذه الدّراسة الاِستفتاحية ستؤدِّي بنا لنبيِّن الإشارات والمفاتيح من خلال العنوان الكبير وعناوينه التي تشرح نصوصه وكذلك المقدّمة التي تختزل فكر اِبن المقفّع بتعليقها على مقصدية معيّنة منذ البداية.

أمّا في الفصل الثاني والموسوم بـــ: **تجلِّيات المقاصد الموضعيّة** فنسعى إلى طرق الكشف عن المقاصد الموضعيّة من خلال المراحل التّالية:

- **قصد الإخبار:** وسنبيِّن فيه علاقة المخاطِب بالنّص من خلال بعض القوانين التي يعتمدها جرايس وكيف تساهم في تأويل الكلام عند اِبن المقفّع، لنشير على الخصوص إلى مبدإ الإخبار الذي يشكِّل القوانين الأخرى: قانون الإفادة وقانون الصِّدق، وسنبيِّن مدى أهمِّيتها وكيف تعمل على إنجاح العمليّة التّواصلية. ونتطرّق في هذا الفصل إلى تحديد أفعال الإنجاز من أمر ونهي وكيف تساهم هذه الأفعال الكلاميّة في بلوغ هدفه المتمثّل في التّغيير وما هي الطّريقة التي يعتمدها حين يأمر أو ينهى مَن هو أعلى منه منزلةً وهو السّلطان تارة ثمّ الرّعية تارة أخرى، وندرس فيه أيضا الإشارات اللّغوية وكيف تساعد على تأويل الخطاب وكذا الاِفتراضات وكيف تكشف عن المقاصد.

- **قصد الإقناع وآلياته:** وهنا نكشف عن المنهج الذي يعتمده اِبن المقفّع لبلوغ مقاصده أي نتعرّض إلى الوسائل التي يستند إليها اِبن المقفّع في الحجاج والتي تتمثّل في السلالم الحجاجيّة والرّوابط الحجاجيّة والمثل والحكمة وغيرها. وسنتعرّض في هذا الفصل إلى دراسة الإحـــالات وهنا سنستنتج أفكار وآراء اِبن المقفّع وهي المرحلة الاِستكشافية والتّعرّف على المقاصد.

ويكون الفصل الثالث والموسوم بـ: **دور السِّياق في الكشف عن المقاصد الإجماليّة** محاولةً للتّعرف على محيط اِبن المقفّع والظّروف التي ساهمت في تكوين فكره وثقافته والغاية التي من أجلها وضع هذا الكتاب ولماذا سُمي أدبا كبيرا، وهل كان كذلك؟ كما سندرس القول المضمر الذي عن طريقه يتمّ التّأويل والفهم وكيف يكشف عن مقاصد النّص.

ولعلّ المنطلق الذي اِنطلقنا منه في دراستنا لهذا الكتاب يتمثّل في قضية الصِّراع الطّبقيِّ والإصلاح السّياسيِّ الذي يسعى إليه اِبنُ المقفّع، محاولين بذلك الوصول إلى بنية عميقة وهي كيف يمكن للمعرفة أن تتجاوز السّلطة وتساهم في التّغيير والإصلاح، بمعنى: كيف يمكن للمعرفة أن تكون فوق السّلطة؟ وهذا ما سنُدركه في الخاتمة التي ستختزل مقاصد اِبنِ المقفّع من خلال أدبه الكبير.

واِستلزمت دراستُنا هذه الاِعتماد على مراجع مختلفة من أجل التّعرّف على المدوّنة –**الأدب الكبير**– ونذكر منها:

- **اِستراتيجيّات الخطاب، مقاربة لغويّة تداوليّة لعبد الهادي بن ظافر الشِّهري** الذي هيّأ لنا الأرضيّة لفهم النظّريّة التداوليّة.
- **اللِّسان والميزان أو التّكوثر العقليّ، وأصول الحوار وتجديد علم الكلام لطه عبد الرحمن.** فكان هذان الكتابان فضاء لشرح مثل هذه النّظريّة التي تكشف عن مقاصد المتكلِّم.

كما نذكر بعض المراجع التي تناولت أدبيّة اِبنِ المقفّع وهي:

- **الفلسفة الأخلاقيّة الأفلاطونيّة عند مفكري الإسلام للتّكريني ناجي.**
- **اِبن المقفّع، نوابغ الأدب العربيِّ لحنّا الفاخوري.**

- **اِبن المقفّع، لحمزة عبد اللّطيف.**

فهذه الكتب – والحقَّ أقول– كانت البوّابة لفهم الفكر المقفّعيِّ.

ونذكر من المذكرات التي تناولت الكتب التّراثية ضمن المناهج الحديثة:

- **اِنسجام الخطاب في مقامات جلال الدِّين السّيوطي لفتيحة بوسنة.**
- **كتاب الاِمتناع والمؤانسة لأبي حيّان التّوحيدي لكميلة واتيكي.**
- **الحجاج في رسائل اِبن عباد الرّندي ليمينة ثابتي.**

بالإضافة إلى مراجع أجنبية ونذكر منها:

- C.K. Orecchioni**: l'implicite**
- D. Maingueneau**: Pragmatique pour le discours littéraire**.
- O. Ducrot **: Dire et ne pas dire**

وفي الأخير، نعتبر هذه الدِّراسة ساحة لفهم فكر اِبن المقفّع، وإنِّي لأرى اِتِّصالا بين الأدبين الكبير والصّغير فهما يجمعان بين فلسفة المنطق والأدب والحكمة. فكانت مقدِّمة الأدب الصّغير إشارة إلى مدى حاجة العقل إلى التّهذيب يقول اِبن المقفّع «**وإنّما إحياء العقل الذي يتمّ به ويُستحكم خصالٌ ستّ: الإيثار بالمحبّة والمبالغة في الطّلب والتّثبّت في الاِختيار والاِعتقاد للخير وحسن الوعي والتّعهّد لما اُختير واُعتُقد، ووَضع ذلك موضعه قولا وعملا**»، وهذا ما جعلنا نرى في دراستهما معا أمرا ضروريّا لابدّ منه.

ونرجو أن يكون بحثنا موّفقا وفي تناول شامل وعرض أوضح يستفيد منه طالب العلم، ولا ننكر أنّنا اِستفدنا منه –كيف لا وهو في الآداب العامّة وما يحتاج إليه النّاس– فليس هذا إلاّ جهدا صادقا، وكلّ رأي يحتمل الخطأ والصّواب فإن كان صوابا دعّموه وإن كان خطأً صحّحوه والله من وراء القصد.

كما لا يفوتنا أن نتقدّم بالشّكر إلى الأستاذة المشرفة الدّكتورة آمنة بلعلى على صبرها وتحمّلها مشاقّ هذا البحث فكانت خير ناصح وموجِّه.

كما نتوجّه بالشّكر إلى أعضاء لجنة المناقشة.

الفصل الأوّل

مقصديّة الخطاب الإِفتتاحي

1- تقديم المدوّنة:

إنّ الخلفيّات المعرفيّة التي يلجأ إليها المخاطِب في خطابه تجعلنا نقف عند مفهوم المرجعيّة، ونشير إلى قيمتها في فهم الخطاب، فذكر "جورج مونان" George Mounin أنّ العلاقة بين العلاقات اللّغويّة والواقع الخارجيّ هي التي تحدِّد أبعاد الخطاب الحقيقيّة، فيقول: «**إنّ اللّغة في ذاتها هي مجموعة من البُنى والأشكال وجودُها يرتبط بتجربة المخاطبين بالعالم**»[1].

إنّ إدراكنا لدلالة اللّغة لا يتمُّ بشكلٍ مباشرٍ، إنّما عن طريق الإيحاء والمجاز يقول المسدِّي: «**غير أنّ جدليّة الاِستعمال توضِّح عناصر اللّغة على تفاعلٍ عضويٍّ بموجبه تنزاح الألفاظ تبعًا لسياقاتها في الاِستعمال عن معانيها الوضعيّة، فضلاً عمّا تُدخله القنوات البلاغيّة من مجازات ليست هي من منظور اللّغويِّ إلاّ اِنحرافات عن المعاني الوضعيّة الأولى**»[2] لذلك فأيُّ عملٍ أدبيٍّ يحتاج إلى قراءة تفكيكيّة لمجموعة البُنى والعناصر التي تشكِّله وتوضِّح مقاصده. و«**القصديّة أو المقصديّة**[*] **من قصد القصد، اِستقامة الطّريق، قصد يقصد قصدًا فهو قاصدٌ، يقول الله جلّ وعلا ﴿وعلى الله قصد السّبيل﴾**[سورة النحل، الآية 6] **أي على الله تبيين الطّريق المستقيم والدّعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة وفي الحديث "القصدَ القصدَ تبلغوا" أي عليكم بالقصد من الأمور في القول والفعل**»[3].

ويرى اِبنُ جنِّي أنّ «**...أصل (ق ص د) ومواقعها في كلام العرب الاِعتزام والتّوجه والنّهوض نحو الشّيء على اِعتدالٍ كان ذلك أوجور، هذا أصله في الحقيقة وإن كان يخصّ بعض المواضيع يقصد الاِستقامة دون الميل، ألا ترى أنّك تقصد الجُور تارةً، كما تقصد العدلَ أخرى! فالاِعتزام والتّوجُّه شاملٌ لهما جميعا**»[4].

1-George Mounin et autres : **Dictionnaire de linguistique,** P.U.F, Paris, 1984, P2001.

2- عبد السلام المسدي: **الأسلوبيّة والأسلوب**، ط2، دار تونس للطباعة، تونس، د.ت، ص58.

*- إن الاِستعمال العربي لمصطلح Intentionnalité هو القصدية أو المقصدية.

3- اِبن منظور، **لسان العرب**، المجلّد3 ، ط1، دار صادر، بيروت، 1990، ص253.

4- المصدر نفسه، ص353- 354.

وتفترض العمليّةُ القصديّةُ «**طريفين إنسانيين: مرسلاً ومتلقِّيًا، بيد أنّ المقاصد أنواع: أوّليٌّ يتجلّى في المعتقدات والرّغبات التي تكون لدى المتكلِّم، وثانويٌّ يكون فيما يعرفه المتلقِّي من مقاصد المتكلِّم وثلاثيٌّ ينعكس في هدف المتكلم الذي يريد أن يجعل المتلقِّيَ يعترف بأنّه يريد جوابا ملائما**»[1]. ويرى بعض الدّارسين أنّ قصد المتكلِّم مرتبطٌ بمعرفة ظروف النّص الموضوعيّة ووضعيّة المتكلِّم ومكانته ووضعيّة المخاطبين، وأنّ القصديّة تجمع بين الوعي واللاّوعي، وأنّها «**خاصّة عدّة حالات عقليّة وأحداث، وبسبب تلك الخاصّة تتوجّه تلك الحالات العقليّة والأحداث إلى أو نحو أشياء وحالات واقعيّة في العالم، والحالات العقليّة المشار إليها هي مثل الإِعتقاد، التّمنِّي الرّغبة....فهذه الحالات وراءها مقصديّة**»[2].

إذن كل كلام يقتضي وجود قصد وهذا ما يؤكّده طه عبد الرحمان «**الأصل في الكلام القصد**»[3].

ويرى الجرجاني أنه حين الأداء الكلامي يجب مراعاة المرسل إليه «**فالإِعتبار ينبغي أن يكون لحال الواضع للكلام والمؤلّف له، والواجب أن ينظر إلى حال المعاني معه**»[4].

وهنا نشير إلى فكرة القصد في العلم الذي يبحث في المعنى، ويظهر من هذا رصد ما يكون من تأثير السياق في بلوغ القصد ممثّلا في حال المتكلم والمخاطب وظروف الكلام، في تأليف الكلام وتشكيله على أنماط تتنوّع وفقا للمقامات المختلفة وهذا ما أشار إليه البلاغيون في علم المعاني الذي هو دراسة العلاقة بين تراكيب

1- محمد مفتتاح: **تحليل الخطاب الشّعريِّ (إستراتيجيّة التّناص)**، ط3، المركز الثّقافي العربيّ، الدّار البيضاء، 1992، ص164.

2- المرجع نفسه، ص165.

3- طه عبد الرحمان: **اللسان والميزان أو التكوثر العقلي**، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1998، ص103.

4- عبد القاهر الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمد رضوان الداية وفايز الداية، مكتبة سعد الدين، ج1، ط1، دمشق، 1987، ص121.

الكلام ومقتضى الحال. فكل حال يقتضي تركيبا، كما أنّه دراسة الكلام وفقا لمقتضيات المقام. ويعرّفه الجرجاني أنّه «**تتبّع خواص تركيب الكلام في الإفادة... على ما يقتضي الحال ذكره**»[1]، إذن يتحدّد القصد من خلال السياق بعناصره الكثيرة، فهو ركيزة الخطاب لتجسيد معنى المرسل.

فيكون للمتكلم اِختيار النّمط الذي يتلاءم وسياق الحال، والذي يحقّق الإرادة الاِستعمالية للتّركيب المنجَز، وهذه الإرادة شيء زائد على التّركيب لأنّها مرتبطة بسياق الحال وموافقة لمقتضاه «**فالقصد ليس مسلّطا على التّركيب في ذاته حسب وإنّما في خواصه**»[2]، كما أشار إلى ذلك السّكاكي أو في دلالته الخاصة كما قال العلوي[3] . فيجد المخاطب نفسه أحيانا يلجأ إلى العدول عن الأعراف، الغايةُ من ذلك بلوغ القصد، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿**تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض**﴾ [سورة يوسف، الآية 73] فقوله (لقد علمتم) جملة معترضة بين القسم وجوابه في النّحو، أما في الجانب البلاغي يقول العلوي مبيّنا مقاصد هذا العدول عن الأصل: وفائدته تقريرٌ عليهم (عن إخوة يوسف عليه السلام) بالبراءة عن الفساد والبعد عن تهمة السّرقة[4].

فاللّغة وحدها لا تكون وساطة للمرسل إليه في معرفة قصد المرسل دون النّظر في السياق، بل وماذا يعني المرسل بخطابه، إذن وجب مطابقة الكلام بمقتضى الحال.

1- عبد القاهر الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، شرح: محمد التنجي، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005، ص268.

2- عبد القاهر الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمد رضوان الداية وفايز الداية، ص129.

3- ينظر: العلوي يحي بن حمزة: **كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، ج3، مطبعة المقتضب، مصر، د.ت، ص17، عن كتاب: دراسات في اللسانيات العربية لعبد الحميد السيد.

4- ينظر: عبد الحميد السيد: **دراسات في اللسانيات العربية**، ط1، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، 2004، ص180.

1-1- دلالة العنوان:

يعدّ العنوان من أهمِّ عناصر النّص الأدبيِّ وملحقاتُه الدّاخليّةُ، نظرًا لكونه مدخلا أساسيًّا في قراءة الإبداع الأدبيِّ، كما يعتبر عتبة النّص وبدايته وإشارته الأولى، وهو العلامة التي تطبع الكتاب أو النّص وتسمِّيه وتميِّزه عن غيره، وهو كذلك من العناصر المحيطة بالنّص الرّئيس إلى جانب الهوامش والمقدِّمات والمقتبسات والأدلّة وغيرها. كما يُعدّ مدخلا إلى النّص وإضاءةً إلى ممرّاته المتشابكة. وأصبح يُنظر إلى العنوان ضمن سياقٍ نظريٍّ وتحليلٍ عامٍ يعتني بإبراز ما للعتبات من وظيفة في فهم خصوصيّة النّص وتحديد جانبٍ أساسيٍّ من مقاصده الدّلاليّة.

إنّ العنوان الذي ندرسه هو **الأدب الكبير** لصاحبه **ابن المقفّع**، فكلمة "**أدب**" تعني التّهذيب والخلق، كقوله (ص) "**أدّبني ربِّي فأحسن تأديبي**".

كما تعني الرِّياضة النّفسيّة أقرب منها إلى المعنى الذي نفهمه من كلمة "أدب" في وقتنا الحاضر، أو المعنى الذي كان يفهمه العبّاسيّون من هذه الكلمة أيضا في القرن الثّالث أي نهاية العصر الأمويِّ، وبداية العصر العباسيِّ[1].

ولم تخلُ الكلمة أيضا من معنى التّعليم إذ ذاك من رواية الأخبار والأشعار وأحاديث الأوّلين، وسيرة الأبطال وغيرها.

فكان الأمراء يُسخِّرون العلماءَ لتأديب أولادهم، فامتازت حياتُهم بحسن الخلق ورقّة الشّمائل، وحسن الصِّفات، وهذا ما فهمه ابن المقفّع من كلمة "**أدب**" آنذاك. ولأجل هذا الغرض وضع كتابية **الكبير والصّغير** فهو يظهر فيهما كأنّه معلم أخلاقٍ يتناول فيهما أمورًا أخلاقيّةً في جوهرها.

إنّ وظيفة العنوان ليست إعطاءَ فكرةٍ عن محتوى النّص فقط، بل وتتمثّل في إثارة فضول القارئ لمعرفة مقاصد هذا العنوان عن طريق التّأثير الذي يمارسه على المتلقّي وصولا إلى درجة الفهم والوعي التّام له.

1- ينظر: مجدى وهبة: **معجم مصطلحات الأدب**، مكتبة لبنان، ساحة رياض الفتح، بيروت، 1974، ص315.

إنّ معنى **الأدب الكبير** هو "ما سمّاهُ صاحبُ الفهرست باِسم "**ما قَرَّ حَسيس**" فقد ذهب الأستاذان هُوفمان (Hoffmann) وجُوستي (Jousti) إلى أنّ اِسمه محرّفٌ عن "**مه فراجو شناس**" وشرحُ هذه الكلمة يكون كالتّالي: "مه" بمعنى عظيم أو كبيـــر و"فراج" بمعنى سموّ أو علوّ و"شناس" بمعنى الشّرح أو الفهم، فيكون المعنى الإجماليُّ لهذه الكلمات شيئًا قريبًا من قولنا: "**الكتابُ الكبيرُ في المعارف العالية**"، وهو كتابٌ بالمعنى الصّحيح، فله وحدةٌ وله موضوعٌ.

والموضوع هنا مقسوم إلى قسمين: أحدهما في علاقة الرّاعي بالرّعيّة والآخر في علاقة الرّعيّة بعضها ببعض[1].

1-2- وظيفة العنوان:

يُعدّ العنوان علامةً دالّةً لها وظيفةٌ تعيينيّةٌ، فمن خلال العنوان يتجلّى لنا كثيرٌ من الفاعليّة والأسس التّعبيريّة التي تأسّس عليها. فالأدب الكبير يحمل قيمًا جماليّةً تتفاعل مع النّصوص. فيسعى إلى تعيين موضوعات اِبن المقفّع التي تدعو إلى الإصلاح ويعرِّف بفكره.

أمّا وظيفة الإغراء فتكمن حين تلقِّي النّص والتّلذّذ به تقبُّلاً وتفاعلاً وذلك عن طريق التّأثير الذي يمارسه حين القراءة ليُثير بعد ذلك فضولَ القارئ. فالعنوان هنا يمثِّل نقطةَ تلاقٍ بين ما هو داخل النّص في وظيفته اللّغويّةِ الواصفة وخارجه أي المتلقِّي الذي يسعى وراء الإغراء، وبالتّالي يكون العنوان مناسبًا لمّا يجذب القارئ وينجح لمّا يُناسب النّص[2]، كذلك كان الأدب الكبير فهو يشدّ القارئ بسحره ويُأسِّره بحُسنه، كما نجده يَعني بموضوع الكتاب ويُشير بشيءٍ من المحتوى، فهو أقرب إلى براعة الاِستهلال من حيث دلالته الظّاهرة على مقاصد الكلام. كما للعنوان وظائف

1- ينظر: حمزة عبد اللّطيف: **اِبن المقفّع**، دار الثّقافة العربية للطباعة، ط3، 1965، د.ب، ص132.

2- ينظر: جوزيب بيزا كامبروبي: **وظائف العنوان**، ترجمة: دار عبد الحميد بوزيو، سلسلة وقائع سيميائيّة جديدة، صادرة عن المطبوعات الجامعيّة في ليموج، العدد82، 2002، فرنسا، ص11.

أخرى تتمثّل في الوظيفة الإيديولوجية، الوظيفة الأيقونيّة والوظيفة الموضوعاتيّة والوظيفة التّأويليّة والمدلوليّة.

يحمل **الأدب الكبير** عناوين فرعيّة في داخله تتفاعل معه لِما تحمله من سياقات تعبيريّةٍ وهي تصنع لبَّ العنوان الذي يتمثّل في الآداب العامّة والأخلاق، كما أنّ هذه العناوين شارحةٌ للعنوان العام. لذلك نجد أنّ العناوين التي إستعان بها ابن المقفّع في فصوله تكمن في علاقة الرّاعي برعيّته وعلاقة الرّعية بعضها ببعض، فتناول ذلك ضمن معادلة النّصح والإرشاد، فكانت أبواب **الأدب الكبير** على الشّكل التّالي:

الباب الأول: في آداب السّلطان.

الباب الثّاني: في صحبة السّلاطين.

الباب الثّالث: في الأصدقاء.

كما تتخلّل هذه العناوين عناوينُ أخرى تكون شارحةً أيضا للعناوين الفرعيّة. هذا البناء يجعل هذه العناوين كلَّها تكشف عن معاني العنوان العام ضمن سيرورةٍ دلاليّةٍ. إنّ **الأدب الكبير** العنوان العام تشكّلت في داخله عناوينُ نصِّه، فتعلّق العنوان مع ما لفصوله من ذلك الشّيء الذي يجعله في حركيّةٍ مستمرّةٍ تكشف عن المقصد العام.

1-2-1-علاقة العنوان بنصوصه: إنّ العنوان هو الذي يوجِّه نصوصَه التي يحتويها، فهي المفاتيح التي بها تُحَلّ مقاصدُ العنوانِ العامِ. تعمل هذه النّصوص على إستخلاص البُنى الدّلاليّة وتحديد سمات العنوان وإضاءته. كما يعدّ العنوان مرآةً لكلِّ ذلك النّسيج النّصيِّ، وتُعدّ خطابات العنوان العام علاماتٍ أوسع تشكِّل قوام العمل الأدبيِّ باعتباره نظاما يُعبِّر عن فكر الكاتب. إنّ هذه النّصوص تُدرك بعد تفكيك رموزها وذلك بعمليّة التحليلِ والتّفسيرِ والفهمِ.

إنّ خطابات ابن المقفّع تُعدّ عناصرَ العنوان كما أنّها متتالية ووَحداتٌ وظيفيّةٌ وهي من مراحل تكوين البنية العامّة التي تتمثّل في الفكر التّربويِّ لدى ابن المقفّع الذي يبدو في فلسفة الإصلاح التي يدعو إليها ابن المقفّع وإرساء فكرة الخير والسِّلم

والأمن. فالعنوانُ إذن هو النّص وبُؤرتُه الكبرى التي يتمحور حولها، وما النّصُّ إلاّ تكملةٌ للعنوان وتمديدٌ له عبر التّوسّع فيه وتقليبه في صيغٍ مختلفةٍ، فالعنوان أساس كلِّ خطابٍ ، عليه يُبنى النّص الأدبيُّ عبر الحوار العرض والشّرح والتّفصيل في المعنى.

أمّا العلاقة بين العنوان وما بداخله من خطابات هي علاقة جدليّة تتمثّل في تفاعل النّص مع عنوانه عبر الإنسجام وتوليد الدّلالة.

وفي كلِّ هذا ننطلق من العنوان إلى النّص، ومن النّص إلى العنوان عبر مراعاة السِّياقين: الدّاخليّ والخارجيّ، ومن خلال القراءة المباشرة وغير المباشرة مراعين مبدأ التّأويل ومقاصد النّص ونوايا الكاتب.

1-2-2-علاقة العنوان بصاحبه: إنّ **الأدب الكبير** العنوانُ الذي وُضع للكتاب وتشكّلت في داخله آراءٌ وأفكارٌ قد تعلّق مع صاحبه ابن المقفّع، فهذا العنوان يتواصل مع ما قدّمه ابنُ المقفّع من منجزات أدبيّة وما حمله من عناوينَ تعبِّر عن تجربته ومع ما لعصره ومرحلته من سماتِ عَنوَنَةٍ خاصّة، فنجد من ذلك: **الأدب الصغير، رسالة الصّحابة، كليلة ودمنة...**الــخ كلُّ هذا نتاجُ ثقافةٍ -تأثّر بها ابن المقفّع- ومنتجها المعرفيّ.

وما يزيد من تفاعل العنوان وصاحبه تلك الصِّياغة التي صاغ فيها ابن المقفّع عنوان كتابه، "**فالأدب الكبير**" جملة اسمية مركّبة من كلمتين معرفتين هما صفة وموصوف، هذا البناءُ الذي جعله في قمّة التّركيب، وينطبق من حيث تناصه مع بعض الصِّيغ التّركيبيّةِ التي عرفها اللِّسان العربيُّ والتي أثّرت في ابن المقفّع، فمنها مثلاً قولُ رسولِ اللهِ ρ "**الدِّينُ النّصيحةُ**".

إنّ البناءَ الفنِّيَّ للأدب الكبير والذي تشكّله اللّغةُ الرّاقيةُ، يُعدّ تكوينًا بوصفه الجماليِّ في إطار فاعليّةِ الفكرِ التّربويِّ الذي يعرضه ابنُ المقفّع، كما يُعدّ منافذَ للتّلقي والتّجاوب، وكلُّ هذا يُعدّ مسعى ابنِ المقفّع في إنتاجه هذا، كما يدلّ على مستوى

تجربتِه ورؤاه. حيث قيل لِابن المقفّع «ما الذي مكّنك من البلاغة؟ يقول: شربت من الخطب ريّا ولم أضبط لها رويّا»[1].

هذا كلُّه من مراحل تكوين بنية العنوان، وضمن هذا يتجلّى دورُ القارئ الذي يبحث عن العلاقة بين العنوان والنّص وكذلك البحث في المقاصد والعلاقات الرّمزيّة والإيحائيّة.

إنّ هذه الدّراسة لعنوان المدوّنة "**الأدب الكبير**" تجعلنا نستخلص بعض سمات العنونة عند اِبن المقفّع وتتمثّل في:

- المرجعيّة التّاريخيّة والرّمزيّة.
- الاِختصار والوضوح.
- دقّة العنوان ونفاذه.
- اِرتباط العنوان بنصوصه مباشرة.
- الاِشتمال لمكوّنات العمل ودلالته ومقاصده.
- تكثيف المعنى في كلمات معدودة.
- ربط العنوان الأساسيِّ بالعناوين الفرعيّة المشوِّقة للقارئ.
- الإثارة وجلب اِنتباه القارئ عبر عنونة الفصول والمقاطع النّصيّة.

2- الاِستراتيجيّة التّخاطبيّة:

ويعني هذا أنّ الخطاب المنجز يكون خطابا مخطّطا بصفة مستمرة وشعوريّة ومن هنا يتحتّم على المرسل أن يختار الاِستراتيجيات المناسبة التي تستطيع أن تعبّر عن قصده وتحقّق هدفه[2].

1- حمزة عبد اللطيف: **اِبن المقفّع**، ص121.

2- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري: **اِستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية**، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2004، بيروت، ص65.

إنّ البحث عن مقاصد المتكلِّم تأتي بعد القراءة، ومفهوم القراءة هنا هي عمليّة اِكتشافٍ كخطوةٍ أولى. فقراءةُ النّص تستلزم الخوض في عدّة مستويات والتّنقّل من عدّة مراحل، وذلك يتمّ بشكل تدريجيٍّ اِنطلاقا من مرحلة اِنطباعيّة أُولى تشكِّل مبرِّرا لمواصلة القراءة، فحالةُ اِستنطاقٍ لمركّبات ومفردات النّص تتبعها حالةُ تأويلٍ أو مرحلةُ كشف القصد وفق رؤًى معيّنة.

يفتتح اِبن المقفّع كتابه بمقدِّمة في جزأين، هذه المقدِّمة تمثِّل ملخّصا لِما سيأتي من مواضيع مفصّلة لاحقا، فهي بمثابة المفتاح بالنِّسبة للقاريء، فهو يحسّ بوجود نوع من الفضول لإكمال بقيّة الكتاب، إضافة إلى ذلك نجد فيها المتعة والتّشويق لأنّها الطّريق نحو الفهم والتّأويل الصّحيح لهذه المواضيع، وترتبط دلالة هذه المقدِّمة بالخطاب، ويأتي البحث فيها بعد تحليل بعض مقاطع المقدِّمة، محاولين بذلك فكَّ رموز هذا التّشابك الذي سيؤدي إلى إنتاج رؤية محدّدة تجاه آليات الخطاب عند اِبن المقفّع. إذن ستكون هذه المقدِّمة قراءة تكوينيّةً اِستنطاقيّةً لمقاصدَ لاحقةٍ.

يقول اِبنُ المقفّع:«... **ووجدناهم لم يرضوا بما فازوا به من الفضل الذي قسِّم لأنفسهم حتّى أشركونا معهم في ما أدركوا من علم الأولى والآخرة، فكتبوا به الكتب الباقية، وضربوا الأمثال الشّافية، وكفُونا به مؤونة التّجارب والفطن، فكان ضيعهم في ذلك ضيع الوالد الشّفيق على ولده الرّحيم البرّ بهم الذي يجمع لهم الأموال والعقد إرادةَ ألاّ تكون عليهم مؤونة في الطّلب وخشيةَ عجزهم إن هم طلبوا.... فمنتهى علم عالمنا في هذا الزّمان أن يأخذ من علمهم، وغاية إحسان محسننا أن يقتديَ بسيرتهم، وأحسن ما يصيب من الحديث محدِّثُنا أن ينظر في كتبهم فيكون كأنّه إيّاهم يحاور ومنهم يستمع وآثارهم يتّبع، غير أنّ الذي نجد في كتبهم هو المنتخل من آرائهم والمنتقي من أحاديثهم...ولم نجدهم غادروا شيئا يجد واصف بليغ في صفة له مقالا لم يسبقوه إليه لا في تعظيم الله عزّ وجلّ وترغيب فيما عنده ولا في تصغير للدّنيا وتزهيد فيها... فلم يبق في جليل العمر ولا صغيرة لقائلٍ بعدهم مقال، وقد بقيت أشياءُ من لطائف الأمور فيها مواضعُ لصغار الفطن مشتقّة من جسام**

حكم الأوّلين وقولهم، فمن ذلك بعضُ ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس»[1].

تندرج هذه المقدِّمة ضمن أفق البحث في فكر ابن المقفّع الموجّه لإنتاج خطابه ضمن رؤًى مختلفة، فنلتمس في هذه المقدِّمة سلطةَ قولٍ موجّهةٍ إلى كل القرّاء. إنّ القراءة الأولى لهذه المقدّمة تجعلنا لا نفهم مضمون هذا الكلام. يتجلّى لنا من البداية أنّ هذا الخطاب موجّه لأيِّ قارئ هو نتاج ظروفٍ معيّنةٍ جعلته يقول ما يقول فالمعطيات الأولى أو القراءة الأولى تجعلنا ندرك المعنى الظّاهريّ للخطاب، أمّا القراءة المنهجيّة ستكشف عن المعاني بكلِّ الطّرق والوسائل بتفكيك رموز النّص وصولا إلى المعنى الكامن في عمق النّص، وذلك بتجاوز المستوى السّطحيّ إلى العميق ضمن شبكة العلاقات المنتجة للنّص.

يحدّد "جاكوبسون" R-Jakobson العمليّةَ التواصليّة أنّها نقلُ المعلومات والأفكار بين الأفراد والجماعات بوسائلَ عديدةٍ أهمّها اللّغة التي هي كيان إنسانيّ واجتماعيّ يختزل معارف الأفراد والجماعات، فتكون بذلك وظيفة هذه اللّغة التّواصل.

ويفترض كلّ تواصلٍ مخاطِبا ومخاطَبا وسياقا مرجعيّا ومقصديّة الرِّسالة إذن فالتّواصل هو ذلك الميكانيزم الذي بواسطته توجد العلاقات الإنسانيّة وتتطوّر، إنّه يتضمّن كلَّ رموز الذّهن مع وسائل تبليغها عبر المجال وتعزيزها في الزّمان. وقد بيّن "جاكوبسون" هذه العمليّة التّواصلية ضمن خطّاطة " **شانون**".

سياق

مرسل ←——— رسالة ———→ مرسل إليه

تواصل

1- ابن المقفّع: **الأدب الكبير**، د.ط، دار الجيل، بيروت، د.ت، ص7-10.

ويبيِّن طه عبد الرّحمن أنّه يمكن لِلَفظ التّواصل أن يحمل ثلاثة معانٍ تتمثّل في «**نقل الخبر، نقل الخبر بِاعتبار مصدره، ونقل الخبر بِاعتبار مصدره وبِاعتبار مقصد، ويسمِّى عمليّة نقلِ الخبر "بالوصول" وعملية نقل الخبر بِاعتبار مصدره الذي يتمثّل في المتكلِّم "بالإيصال" وعملية نقل الخبر بِاعتبار مصدره ومقصده "بالاتِّصال"**»[1].

1.2- المرســـل:

وهو القطب الأوّل من أقطاب العمليّة التّواصليّة، يعتبر الذات المحورية في إنتاج الخطاب ومالكه والقائم ببثِّه، كما نجد عنده سلطة التّحكّم في تقنياتها حيث يعتمد على جميع الوسائل ليبلغ مقاصده[2]، وبغرض تحقيق هدف فيه، ويجسِّد ذاته من خلال بناء خطابه بِاعتماده اِستراتيجية خطابية تمتدّ من مرحلة تحليل السِّياق ذهنيّا والاِستعداد له وبما يضمن تحقّق منفعته الذّاتية بتوظيف كفاءته لنجاح أفكاره[3].

والمرسل في مدوّنة **الأدب الكبير** هو اِبن المقفّع، فنجده في هذه المقدِّمة يزوِّد القارئ بمعارف لم يدركها سابقا، فيرى في الأقدمين المثلَ الأعلى، فعن طريقهم وبفضلهم وصل ما وصل إليه غيرُهم من أمور الدّنيا والدِّين. فنجده بدأ خطابه بالإخبار عن الأقدمين والسّلف وذلك ضمن إشارات ومفاتيح تتمثّل في: إنّا وجدنا النّاس قبلنا كانوا أعظم أجساما/ أشدّ قوّة / أحسن بقوّتهم للأمور اِتقانا / أبلغ في العلم والعمل / كانوا من أهل البلاغة والعقل / أدركوا من علم الأولى والآخرة... فرغم بعد الفترة الّتي عاش فيها اِبن المقفّع إلاّ أنّه اِستطاع أن يجسِّد للقاريء- مهما كان عصره- فِكرَ تلك الفترة، واِستطاع أيضا أن يضع للتّواصل البشريِّ طريقا معبّدا يُوصله إلى أيِّ زمانٍ يشاء، فقد أَوصل إلى القارئ من أخبار الأوّلين ما فيه الكفاية في

1- ينظر: طه عبد الرّحمن: **اللِّسان والميزان أو التكوثر العقلي**، ص254.

2- ينظر: محمّد جهاد جميل، سمير روحي الفيصل: **مهارات الاِتِّصال في اللّغة العربيّة**، د.ط، دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات العربيّة المتّحدة، 2004، ص15.

3- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري: **اِستراتيجيات الخطاب**، ص54.

بداية هذه المقدِّمة، هذه كلُّها بمثابة مقدِّمات قصد الإخبار، لها علاقة بما سيأتي وذلك بتقديم معطيات حيث: تعلّموا أمور الدِّين وتعلّموا كلَّ ما فيه / عملوا به / نقلوا علومهم إلى كتب/ مخافة الضّياع والإتلاف / صاغوها ضمن قالب المثل والحكمة، ليصل إلى نتيجة وهي الأخذ من علمهم والاِقتداء بسيرتهم والنّظر في كتبهم.

وجب أن نشير أيضا إلى أنّ اِبن المقفّع في مقدّمته أورد إخبارا دون أن يستعمل التّوكيد والغرض من ذلك الاِفتخار بالأوّلين وفضله إياهم على الآخرين. فقد نسب تلك الأخبار كلّها إلى ضمير الجمع الماضي بصيغة (كانوا) فهو يفترض أنّ المخاطب لا يحتاج إلى توكيد، فأخبار الأوّلين عنده في غنى عن التّوكيد فهم يمثّلون المثل الأعلى.

إنّ هذه القراءة لا تتجاوز المنظور الظّاهري وهو وصف الأوّلين وذكر محاسنهم، فلعلّ اِبن المقفّع يعلن عن مقصديّة معيّنة منذ البداية، ويكمن ذلك في الطّريقة التي اِعتمدها في سرد خطابه وهي الاِستدلاليّة الحجاجيّة، حيث يتّخذ هذا التّسلسل الخطابيُّ مرجعيّةً مفادُها ليس الغرض أن يخبر عن الأوّلين، إنّما هناك قصديّة أخرى يكشف عنها هذا الاِستدلال بالخبر، وتتمثّل في ربط الأخلاق بالعلم في ظلِّ عقلٍ يميِّز بين الخير والشّر.

يعتمد اِبن المقفّع – من أجل الوصول إلى المقاصد وبلوغها – طريقة سرد الحقائق وبالتّالي الاِستدلال، ويكون مسارُه هذا ضمن المخطّط التّالي:

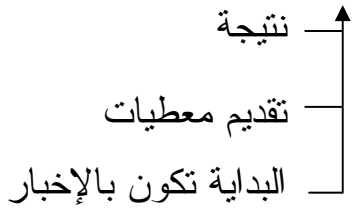

ونجد ذلك أيضا حين يعلن عن الاِعتزام، ومن علامات ذلك: تعظيم الله/ ترغيب فيما عنده/ عدم تصغير الدّنيا / لكن تزهيد فيها / العلم / تبيين مآخذه / الأخلاق... ضمن هذا التّسلسل تتجلّى قراءة اِستنطاقيّة تحلِّل هذه المعاني والتّصورات المستنبطة من القراءة في مستواها الأوّل لتؤدِّيَ في الأخير أغراضا ومقاصد معيّنة تؤسِّسها هذه

المرجعيات الدِّينية والدّنيويّة، فابنُ المقفّع يرسِّخ لفكر دنيويٍّ عقلانيٍّ وهو الزّهد لتنشأ بذلك ثنائيّة التّحلية والتّخلية، أمّا التّحلية فهو التّحلِّي بما يرضي الله، والتّخلية هو التّخلِّي عمّا لا يرضي الله، وذلك من أجل بلوغ درجة العارفين.

إنّ هذه الخطابات تعبِّر عن فكر ابن المقفّع المنفعِل، و«**هي التي توجِّه الكلام وتصبّه عن المتكلِّم نفسه، غايتُها التّعبير عن موقف المتكلِّم من الموضوع الذي يتكلّم عنه، فهي تهدف إلى إطِّلاع المخاطَب على انطباعات المتكلِّم وشعوره تجاه ما يتكلّم عنه ،سواء كان ذلك منه حقيقة، أم تمويها**»[1]، يتفتّح وعي ابنِ المقفّع على اللّغة ضمن وظيفتها الدّلاليّة، فهو لا يملك غيرها، ليعبِّر عن طريقها بما تقتضيه حالته النّفسية، وهذا يعدّ من استراتيجيات التّواصل عنده.

وفي الأخير، تتجلّى نفسيّة ابن المقفّع المتواضعة: فلم يبق في جليل الأمر ولا صغيرة لقائل بعدهم مقال/ وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور/ ومن ذلك ما أنا كاتب في كتابي هذا/ من أبواب الأدب التي يحتاج إليها النّاس. نلتمس من ذلك نوعا من التّواضع، بعد الاعتراف بما بلغه الأوّلون من علم ودين وأخلاق، وقد اعتمد ابن المقفّع المسار الاستدلالي لحركيّة الدّلالة، والكشفُ عن المقاصد كان ضمن النِّظام البرهانيِّ الذي يمثّله المخطط التّالي:[2]

1- محمد الصغير بناني: **النّظريات اللِّسانية والبلاغيّة عند العرب، النّظريات اللِّسانية والبلاغيّة والأدبيّة عند الجاحظ من خلال البيان والتّبيين**، دار الحداثة، ط1، د.ب، 1986، ص201.

2- محمد العمري: **في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظريّ تطبيقيّ لدراسة الخطابة العربيّة الخطابة في القرن الأول أنموذجا**، د ط، دار الثّقافة للنّشر والتّوزيع، الدّار البيضاء، 1986، ص129.

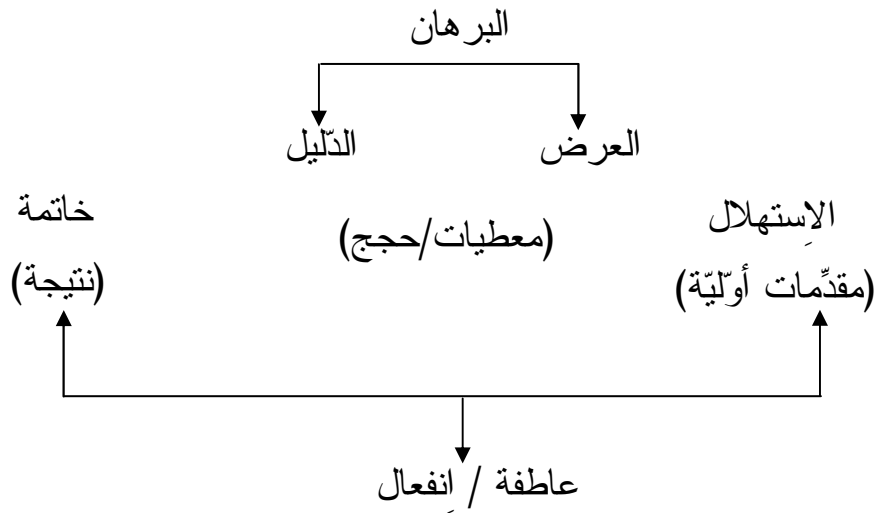

نوّع اِبن المقفّع أساليب الاِستدلال، وذلك بمراعاة الفكرة المطروحة وكان العرض بذلك في قمّة التّركيب يعترية الوضوح والاِختصار، وتَمثَّلَ دوره في إعداد المخاطَب لمرحلة البرهنة. ولتوضيح العمليّة التّواصليّة والحجاجيّة التي يؤول إليها اِبنُ المقفّع هناك عمليّة التّعبير وعمليّة الإخبار، مايستدعي عمليّة الإقناع التي يتلاعب فيها اِبن المقفّع ليلقى آذانا صاغية فيؤثِّر في المتلقِّي، وذلك عملا بآرائه.

إنّ التّأمّل في هذه المقدِّمة يجعلنا ندرك مدى كفاءة التّعامل فيها وكفاءة الاِستدلال أيضا، فهذا لا يجعلنا نفكِّر في متلقٍّ يجد ما فيه شكٌّ فيما تحمله هذه المقدِّمة من مقاصد، ممّا يجعلها مميّزةً بتميّز لغتها وقيامها للمنهج الاِستدلاليِّ. وهذه الطّريقة صالحة للإخبار عن الأقدمين. ونوضِّحها ضمن المخطّط التالي[1]:

1- فتيحة بوسنة: **انسجام الخطاب في مقامات جلال الدين السيوطي**، رسالة ماجستير، جامعة تيزي-وزو، 2007، ص67.

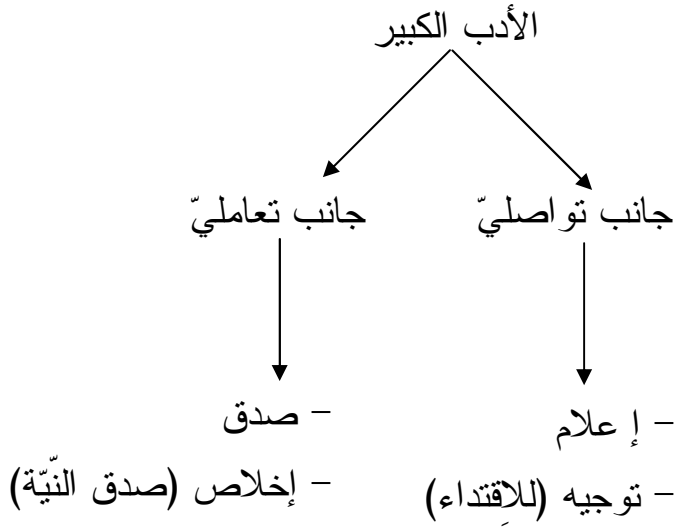

من خلال المعطيات المتوفّرة في المقدّمة الأولى للكتاب نلاحظ أنّ النّزعة العقليّة طغت طغيانا حيثما عالج قضيّة أو تطرّق إلى مسألة بالشّرح والتّحليل، لقد سعى اِبن المقفّع – ومن خلال هذه المقدّمة – إلى غرس أخلاقيّات المجتمع مثاليّة أكثر منها واقعيّة، فكلّ خير يجب أن يحصّل وكلّ شر يجب أن ينحى ويفصل، لم يثنِ كلّ هذا من عزيمة اِبن المقفّع بل واِستمر فيما كان يعتقده ويؤمن به – وهو ما سنتعرّف عليه لاحقا– وهو أنّ صلاح أمر النّاس والبلد يبادر إليه العلماء والفلاسفة والأدباء وهذا ما بيّنه في مقدّمته، كما ساد المنطق الذي يربط بين المفاهيم.

بعد أن أخبر عن فضل الأوّلين في المقدّمة الأولى، ينتقل اِبن المقفّع في الجزء الثاني من المقدّمة ليعرض مسائل أخرى ويستهلّ بها وذلك لأهميّتها، فيقول "**فمن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس**" ستكون المقدّمة الثّانية تعبيرا عن رؤًى يريدها اِبن المقفّع في النّاس، ويعرِّف المخاطَب المفترَض بها لتسهّل الطّريق لفهم خطاب اِبن المقفّع من حيث المواضيع المعالجة وكذا نوعيّة العلاقة بين المخاطِب والمخاطَب والظّروف التي أُنجز فيها الكتاب وغيرها من العوامل التي تساعد على تأويل الخطاب.

يقول اِبن المقفّع: **ومن أحرز الأصول إكتفى بها عن الفصول، وإن أصاب الفصل بعد إحراز الأصل فهو أفضل. فأصل الأمر في الدِّين أن تعتقد الإيمان على الصّواب وتجتنب الكبائر، وتؤدِّي الفريضة، فالِزم ذلك لزوم مَن لا غنًى له عنه طرفة عين، ثمّ إن قدرت على أن تجاوز ذلك إلى التّفقّه في الدِّين والعبادة فهو أفضل وأكمل. وأصل الأمر في صلاح الجسد ألاّ تحمل عليه من المآكل والمشارب والباه إلاّ خُفافا**[1].

ويقول أيضا: **ثمّ إن قدرت على أن تكون أوّل حامل، وآخر منصرف من غير تضييع للحذر فهو أفضل**[2].

ويقول أيضا: **وأصل الأمر في الجود ألاّ تظنّ بالحقوق على أهلها، ثم إن قدرت أن تزيد ذا الحقِّ على حقّه وتطول على مَن لا حقّ له فافِعل فهو أفضل**[3].

ويقول أيضا: **وأصل الأمر في المعيشة ألاّ تنِيَ على طلب الحلال، وأن تُحسن التّقدير لما تفيد وما تنفق**[4].

ويقول أيضا: **وأنا واعظك في أشياء من الأخلاق اللّطيفة والأمور الغامضة التي لو حنّكتك سنّ كنت خليقا أن تعلمها وإن لم تُخبَر عنها**[5].

تضمّنت هذه المقدِّمة قوانين الحياة عند اِبن المقفّع، فجاءت مرتّبة حسب الأهمية والأولويّة:

أ – معرفة أصل الأمور في الدِّين.

ب– معرفة أصل الأمر في صلاح الجسد.

ج– معرفة أصل الأمر في الجود.

1، 2، 3– اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص3.

4– المصدر نفسه، ص4.

5– نفسه، ص5.

د- معرفة أصل الأمر في البأس والشّجاعة.

هـ- معرفة أصل الأمر في الكلام.

وما يميِّز هذه المقدِّمة عن الأولى، أنّ الأولى لجأ فيها إلى التّقرير، أمّا في الثّانية نجده يطلب من المخاطَب، فاِحتوت أمورا دينيّة ودنيويّة وذكر مراتب النّاس في الجود والشّجاعة والإيمان وغيرها، وجميعُها أمور تتّصل بالنّفس البشريّة بل وهي قوامها، وكان التّعبير عن هذه الأمور عن طريق عمليّة الإخبار: يا طالب الأدب إن كنت نوع العلم تريد/ فاِعرف الأصول والفروع، ثمّ تليها عمليّة التّعبير وتقديم المعطيات التي هي بمثابة الحجج والبراهين: إنّ كثيرا من الناس يطلبون الفصول مع إضاعة الأصول/ فلا يكون دركهم دركا/ العبادة/ التّفقّه في الدِّين....، وباِتِّحاد هاتين العمليتين (عملية الإخبار) و(عملية التّعبير) تتشكّل العمليّة التّواصليّة التي تستدعي العمليّة الحجاجيّة التي يمرّ عبرها اِبن المقفّع بكلِّ وعي وحكمة التّلاعب باللّغة ليُعطيَ مفهوما للإيمان الذي هو الإيمان اليقين بالله وأداء الفرائض واِجتناب الكبائر، وهذا يكون بمثابة نتيجة. فأمورُ الدِّين جعلها أوّل الأمور لما لها من علاقة اِتِّصال بين النّفس المؤمنة وربِّها، فتكون هذه النّفسُ عاملةً ومتزهِّدة لتبلغ مسعاها، وبالتّالي تنال رضا ربِّها ونتيجةُ ذلك الفوزُ بالآخرة، وذلك هو الإيمان اليقين، ونوضِّح ذلك ضمن المخطّط التّالي:

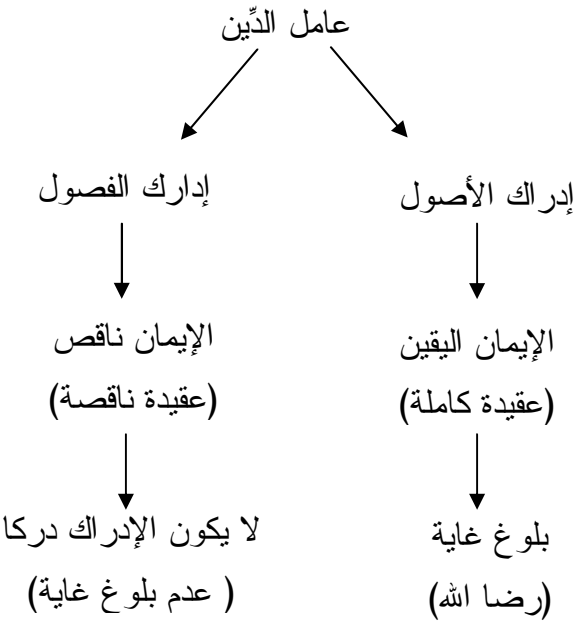

عُرضت هذه المقدّمات والمعطيات على شكل (قضية≠ نقيض) وبالتّالي النّتيجة تكون ضمن ثنائيّة (الإيجاب≠السّلب).

أمّا الأمر الثّاني الذي عرضه ابن المقفّع هو صلاح الجسد، الذي لا يتحقّق أمر الدِّين بدونه، قدّم بذلك متتالية من الجمل التي هي مفاتيح وعلامات لإدراك المقصد هذه العلامات تتعلّق بالجسد وتتمثّل في: عدم تحميله ما لا يطيق من المآكل/ عدم تحميله ما لا يطيق من المشارب/ وعدم تحميله ما لا يطيق من النِّكاح..... تداخلت هذه الصّور الحجاجيّة من أجل الخروج بغرض وهو تنبيه النّفس بالمحافظة على الجسد، فالجسد السّليم القوي قادر على إتيان العبادات والفرائض التي يدعو إليها الدِّين، وهذه المقدّمات تشبه في تناصها مع قول الرّسول ρ: "**نحن قوم لا نأكل حتى نجوع**" فعدم الإفراط في الأكل والمشرب يهيِّء لجسد قويٍّ قادرٍ على العمل بالفرائض، كما تخرج هذه القصديّةُ إلى قصديّة نقيضة وهي عدم سلامة الجسد وبالتّالي لا يقدر على إتيان العبادات والفرائض، فلن تكون بذلك علاقة بين الجسد والدِّين، وإن كانت فهي ضعيفة، وهنا نخرج بالثّنائية التّالية (قضيّة ≠ نقيض قضيّة) فالقضيّة النّقيضة لم يشر إليها ابن المقفّع، لكن تُدرَك ضمن العلامات المفاتيح.

وهنا تتجلّى معادلة (النّفع ≠ الضّرر) كقصديّة عامّة يكون فيها النّفع نتيجة جسد سليم قادر على القيام بالعبادات وذلك باجتناب مضاره، أمّا الضّرر يكون نتيجة جسد غير سليم وسببُه الإسرافُ في الأكل والمشرب والنّكاح.

ويكون الأمر الثالث في معرفة أصل الأمر في الجود: ويعرض ذلك ضمن متتالية من العلامات وهي: عدم البخل بالحقوق على أهلها / زيادة ذي الحقّ على حقِّه إن استطعت/ الامتنان والإنعام على مَن لا حقّ له ليكون أفضل وأحسن، إنّ هذه المرجعيات لفكرة الحقّ وصاحب الحقّ. وهذا المبدأ يؤسِّس لرؤى عظيمة إنسانيّة تعطي كلّ ذي حقٍّ حقَّه وهذا الأمر ينطبق مع قول الرسول ρ "**وآتوا كلّ ذي حق حقّه**" ليؤسِّس لعقلٍ فقهيٍّ عادلٍ، وهو عقلٌ لا يَظلم أصحاب الحقوق، وهنا يمكن أن تكون إشارة إلى الحاكم النّموذج أو المثاليّ.

تتواصل معاني الآداب العامّة في هذا الجزء من المقدّمة ضمن سيرورة دلاليّة ليعلن في الأمر الرّابع عن معرفة أصل الأمر في البأس والشّجاعة وفق هذه المعطيات: عدم الرّجوع إلى الوراء حين هجوم العدّو/الحذر حين مهاجمة العــدّو وعند الإستطاعة من المستحسن أن يكون أوّل الذين يهجمون... هذه المعطيات تؤسِّس لفكرة تتمثّل في: كيف تتعامل؟ وهذه الصِّفات من بأس وشجاعة وهجوم وحذر هي بمثابة حجج لنتيجة وهي حسن التّدبير.

ويكون الأمر الخامس في معرفة أصل الأمر في الكلام: فنجده يستدلّ بالمعطيات التّالية: حين الوقوع في الخطأ / الإحتذاء بالصّواب/ التّفوّق في العلم... هذه المرجعيّات تخرج إلى غاية تتمثّل في عرض مفهوم فضيلة الكلام.

أمّا الأمر السّادس والأخير في هذه المقدِّمة يكون في معرفة أصل الأمر في المعيشة، وقد شرحه وأشار إليه ضمن المفاتيح التّالية: عدم التّراجع عن طلب الرِّزق حسن التّدبير في إنفاق المال... هذه المعطيات إعلان على حسن التّدبير والتّقديــر وهي أيضا إعلان على أنّ العمل عبادة، فالحكّام أحوج إلى هذا التّقدير من عامّة النّاس.

وفي الأخير، نجد إبن المقفّع يحذِّر مخاطبَه من أمر خطير، وهو الإغتراز بالبحبوحة من المال التي يكون فيها الإنسان، وذلك ما نفهمه من المعطيات التّالية: الملوك أحوج إليه من السّوقة/ لأنّ السّوقة قد تعيش بغير مال/ الملوك لا قوام لهم إلاّ بالمال / إن قدرت على اللّطف والرّفق في الطّلب..... هذه المعطيات تعلن عن مقصديّة وهي المحافظة على المال لأنّه زينة الحياة الدّنيا.

هذه الأمور التي عرضها إبن المقفّع في مقدِّمته تجعله يمتلك سلطة ليسيطر بها على الخطاب، وذلك مايجعل مخاطبية يتلقّون هذه الأمور ممّا يحتاجونه في الحياة من دين /علم / فضيلة/ أخلاق...

أمّا الفقرة الأخيرة من المقدّمة فهي حوصلة لما قال سابقا "**وأنا واعظك...**" ولمّا أدرك اِبن المقفّع أنّ النّصيحة لا تكون إلاّ عن صاحب كفاءة ومعرفة، نجده بذلك يقدم تلك الآداب التي يجب أن يعرفها الفرد ليتعامل بها مع الآخر، لتكون بذلك هذه المعطيات ممرًّا لمقصديّة يعلن عنها وهي قصديّة تقبّل الموعظة.

إنّ هذه المعطيات التي اِحتوتها المقدِّمة الثانية تجعل اِبن المقفّع في صورة المصلح الاِجتماعيِّ، فأفكارُه هذه ذات منحى إصلاحيٍّ ركّزت على الجانب التعامليِّ الاِجتماعي، فصيّرت منه عنصرا منهضا للسّلطة الحاكمة إذ وبطريقته سيحاول أن يخلع القداسة عن الخلفاء وهذا ما سنتعرّف إليه في المقاصد اللاّحقة. كما نجده يدعو إلى الفضيلة والأخلاق وينهى عن الرّذيلة والاِنزلاق. لقد سادت الفلسفة العقلية في هذه المقدّمة التي يراها اِبن المقفّع أساسا سليما في المعاملة بين النّاس، ومن ثمّة التّخلِّي عن أسلوب القوّة في تسوية الخلافات.

تضمّنت المقدِّمتان منهجًا اِستدلاليًّا في عرض أفكار اِبن المقفّع والإعلان عنها ويمكن التّمثيل له بالشّكل التّالي:

المقدِّمة الأولىّ:

إنّا وجدنا النّاس قبلنا كانوا:
- أعظم أجساما
- أوفر أحلاما
- أحسن إتقانا للأمور
- أطول أعمارا
- أحسن إدراكا للدّنيا والآخرة

↓

(مقدّمات)

إخبار

↓

- يفتح للرّجل منهم باب العلم والكلمة
- المحافظة على العلم
- يكتبونه على الصّخور
- يدوِّنونه

↓

(معطيات)

حجج وبراهين

↓

نتيجة: النّظرة في كتبهم / تتبّع آثارهم / ضرورة الأخذ من علمهم / الاِقتداء بسيرتهم....

المقدمة الثانية:

يقدِّم قوانين الحياة و هي:

- معرفة أصل الأمور في الدِّين
- معرفة أصل الأمر في صلاح الجسد
- معرفة أصل الأمر في الجود
- معرفة أصل الأمر في البأس والشّجاعة
- معرفة أصل الأمر في الكلام
- معرفة أصل الأمر في المعيشة

- اِجتناب الكبائر
- أداء الفرائض
- عدم تحميل الجسم ما لا يطيق
- الحذر حين مهاجمة العدوّ
- حسن الكلام من الفضيلة
- حسن تدبير المال

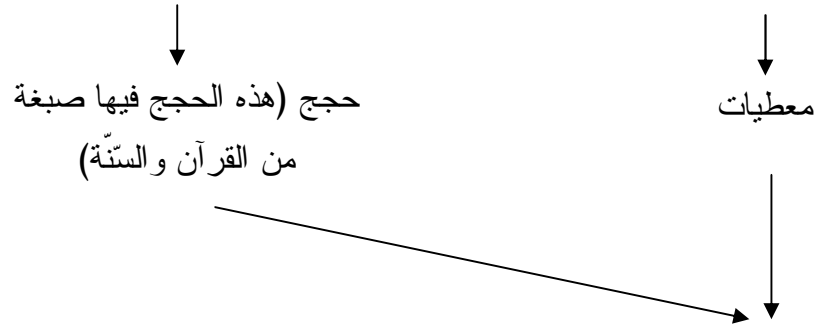

نتيجة: تقبّل الموعظة (وأنا واعظك).

من خلال هذه المخطّطات نجد اِبن المقفّع يربط بين المعطيات والنّتيجة وذلك بشكل ظاهر أوضمنيٍّ، ولإقناع المخاطَب يلجأ إلى القيم التي يحتاج إليها النّاس في الحياة كوسيلة يحجّ ويدافع بها، كما يلجأ إلى وسيلة أخرى للإقناع وهي تقارب خطاباته مع أقوال الرسول ρ ونجد ذلك حين تناول قضية المحافظة على الجسد وإتيان الحقوق، ليتناسب موضوع المقدِّمة الأولى بموضوع الثّانية، فكان في الآداب

العامّة وما يحتاج إليه النّاس في دنياهم، كذلك المقاصد التي تهدف وتخرج إليها المقدمتان، إذ يمكن صياغتها ضمن المعادلة التّالية: أخلاق– علم– دين.

إنّ هذه المعطيات التي قدّمها اِبن المقفّع والمعلنة عنها في المقدِّمتين رتّبها حسب أهميتها وأوّليتها ومدى حاجة الإنسان إليها في الحياة، وبناؤها قائم على الحجّة والاِستدلال أي ضمن المخطّطة التّالية:

إخبار ← معطيات (ضمن براهين وحجج) ← فنتيجة: هذه النّتيجة قائمة على ثنائية: (النّفع ≠ الضّرر)

إنّ المقدِّمة التي اِستعان بها اِبن المقفّع هي اِستعداد للقارئ ووضعه في السِّياق لتلقِّي الخطابات اللاّحقة، إذن تعدّ المقدِّمة علامة سابقة لإدراك وفهم علامة لاحقة.

ويمكن شرح المخطّطات التي اِستعنّا بها في المقدِّمتين ضمن النتائج التالية:

- إن المقدِّمتين اللّتين تضمّنهما **الأدب الكبير** تعلنان على أخلاق الحكم والعدل كما تهدفان إلى عقلانيّة التّدبير.
- ترسيخ ثنائيّة الدِّين والأخلاق في الأمور كلِّها.
- إنّ هذه المقدِّمة رسالة موجَّهة إلى العقل في مختلف الآداب والاِجتماعيّة العامّة.
- إنّ العدالة التي يعلن عنها اِبن المقفّع في مقدمتيه تتحقّق في نجاعة العمل السياسيِّ، وعلاقةُ الحاكم بالرّعية لا تُفهم إلاّ ضمن هذا الإطار وهذا ما سيعلن عنه لاحقا.
- إنّ هذه الأفكار المعلنة في المقدِّمتين مستمدّة من مزيج من العبرة التّاريخيّة المنفتحة على تاريخ يتجاوز التّاريخ العربيَّ ومبادئ عامّة تتجاوز الأزمنة في صيرورتها لتُحدَّد كمبادئ إنسانية قادرة على اِستيعاب متغيّرات التجربة الإنسانية في جريانها وفي تنوّعها وتطوّرها.

- إنّ ابن المقفّع يؤسّس –ومن خلال المقدّمتين– لأدب النّصح المقرون بموضوع التّدبير في ظلِّ النّظر العقليِّ.

وفي الأخير، تعلّق موضوع المقدّمتين بموضوع العنوان، كذلك المقاصد التي تسعيان إليها، فكانت في الآداب العامّة.

والسؤال الذي نطرحه: هل سيكون الموضوع نفسه فيما سيأتي وهل ستكشف المقاصد السّابقة على مقاصد لاحقة لها علاقة بالموضوع المفتاح وهو: **الأدب الكبير؟**

2.2- المرسل إليه:

إنّ وجود المرسل إليه في الخطاب هو ما يسهم في حركية الخطاب[1] وهو الطّرف الآخر الذي يوجّه إليه المرسل خطابه عمدا، وقد أشار اللّغويون إلى تأثير المرسل إليه على المرسل عند إنتاج خطابه، إذ أبرزوا دوره في مستوى الخطاب اللّغويّ، ففي المستوى النّحوي يتجلّى المرسل إليه من حيث التّذكير والتّأنيث والعدد... كما أبرزوا دوره في سياق الخطاب وأثره[2].

إنّ المرسل إليه حاضر في ذهن المرسل حين إنتاج الخطاب، ويكون تشخيص المرسل إليه أو استحضاره هو الذي يسهم في حركيّة الخطاب بل ويسهم في قدرة المرسل التّنويعيّة، ويمنحه أفقا لممارسة اختيار استراتيجية خطابه وتنظيم آليات لخطابه من أجل نجاح الوظيفة التّواصليّة[3].

يتوجّه ابن المقفّع في خطابه هذا إلى المرسل إليه، فيشير إليه بكل مواصفاته ونعوته، فنجده يستعمل اللّغة ليعبِّر عن موقف عقليٍّ أو فكرة أو شعور[4] لتؤدي بذلك العمليّة التّواصليّة. «**والموضوع في الأدب الكبير مقسوم إلى قسمين: أحدهما في**

1- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري: **إستراتيجيات الخطاب**، ص48.

2- المرجع نفسه، ص74.

3- نفسه، ص84.

4- ينظر: سيزا قاسم، ناصر حامد أبوزيد: **مدخل إلى المسيوطيقا – أنظمة العلامات في اللّغة والأدب والثقافة**، د.ط، دار إلياس العصرية، القاهرة، 1986، ص285.

علاقة الرّاعي بالرّعية، والآخر في علاقة الرّعية بعضها ببعض»[1]، ونجد ابن المقفّع بذلك يشير إلى المخاطَب في فصلين: أمّا الأول في السّلطان ومصاحبه، وما يحمل في كلٍّ منهما من الصّفات، وفي هذا أيضا بابان: فكان الأوّل في آداب السّلطان، وكان الثّاني في صحبته. وتوجّه في الفصل الثّاني إلى الأصدقاء، فتناول حسن اِختيار الصّديق، وحسن معاملته، وكلّ ما له علاقة بالصّداقة.

لقد كان ابن المقفّع ينظر إلى السّلطان نظرة إلى المثل الأعلى، فيقول: «**فهو رجل كان ينزع في تفكيره أبدا إلى المثل الأعلى**»[2] فيظهر ذلك في كتابته، ولعلّ كتاب **الأدب الكبير** يكون أصدق مثال لما نقوله، فهو حيث أحبّ أن يكتب عن السّلطان كتب عنه كما يجب أن يكون عليه السّلطان الكامل في حكمه وسياسته وأخلاقــه وحسن سيرته وهو إذن يصف المثل الأعلى للسّلطان، ونجد فيما يقول عن السّلطان ما يلي: «**إن اُبتليت بالسّلطان فتعوّذ بالعلماء، واِعلم أنّ من العجب أن يُبتلى الرّجل بالسّلطان، فيريد أن ينتقص من ساعات نصبه وعلمه، فيزيدها في ساعات وقته وفراغه وشهوته وعيشه ونومه...**»[3] كما نجده يأمر بأن يشاور أهل العقل في الرّأي الصّالح فيقول له «**ولا تقذفنّ روعك أنّك إذا اِستشرت الرِّجال ظهر منك الحاجةُ إلى رأي غيرك، فإنّك لست تريد الرّأي للاِفتخار به، ولكنّما تريده للاِنتفاع به، ولو أنّك مع ذلك أردت الذِّكر كان أحسن الذكرين وأفضلهما عند أهل الفضل والعقل أن يقال: لا ينفرد برأيه دون اِستشارة ذوي الرّأي**»[4]، وفي واجباته يقول له «**احرص الحرص كلّه على أن تكون خابرا أمور عمالك، فإنّ المسيء يفرِّق من خبرتك أن تصيبه عقوبتك، وإنّ المحسن يستبشر بعملك قبل أن يأتيه معروفُك**»[5].

1- حمزة عبد اللّطيف: **ابن المقفع**، ص169.

2- ابن المقفع، **الأدب الكبير**، ص132.

3- المصدر نفسه، ص15.

4- نفسه، ص18-19.

5- نفسه، ص20.

إنّ ابن المقفّع في خطاباته هذه «**يراعي مقام إنتاج الخطاب، وأحوال المتلقِّي وكذا أشكال إلقاء الخبر إليه وما إلى ذلك من ظروف الحديث فهو يستحضر المرسل إليه في كل عمليّة إبلاغيّة ولو بصورة ذهنيّة**»[1]، وذلك للظّروف التي سادت عصره آنذاك لكن عزيمته في الإصلاح أقوى من أيّة معارضة ولتوضيح ذلك نستعين بالمخطّط التالي :

المرسل	← **الموضوع** ←	**المرسل إليه**
الرّغبة في تحقيق الصّلاح	تحقيق وضع أحسن من خلال وضعه للكتاب	– الرّاعي – الرّعية

وفي مصاحبته يقول: "**لا تكوننّ صحبتُك للملوك إلاّ بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك وموافقتهم في ما خالفك، وتقدير الأمور على أهوائهم دون هواك، وعلى ألاّ تكتمهم سترك ولا تستطلع ما كتموك وتخفي ما أطلعوك...وإن وجدت عنهم وعن صحبتهم غنًى، فأغنِ عن ذلك نفسك واعتزله جهدك، فإنّ من يأخذ عملهم بحقه يحلّ بينه وبين لذّة الدّنيا وعمل الآخرة، ومن لا يأخذ بحقِّه يحتمل الفضيحة في الدّنيا والفوز في الآخرة**".

يتميّز ابن المقفّع بلغته وأسلوبه في جذب المتلقي من خلال استراتيجيّة التّعامل معه، فهو يقدِّم معطيات فحججًا فنتيجة، لتكون هذه المعادلة وساطة بين المرسل والمتلقِّي من أجل بلوغ الغاية أو للتّأثير على هذا المتلقِّي.

أمّا المرسل الثّاني الذي يتوجّه إليه ابن المقفّع الرّعية فنجده يقدّم ويوضح العلاقة التي تتعامل بها مع الرّاعي أوّلا وعلاقتها مع بعضها البعض ثانيا. فرأى في الصّديق ما رآه في السّلطان أي المثل الأعلى. لقد جاء كلامه في الصّديق حاملا لعدّة معانٍ متضمِّنةٍ النّبل وصدق الطّوية وحسن الأخلاق وغيرها من المبادئ والقيم، فقد

1– خلفية بوحادي: **الخصائص اللّغوية في ديوان بوبات النور– دراسة في الوظيفة التّداولية**، رسالة دكتوراه، جامعة قسنطينة، 2006، ص40–41.

وصفه كما يجب أن يكون عليه، فليس للملتقِّي إلاّ فكّ رموز الخطاب لإدراك دلالاتِها والتّفاعل معها، فممّا يقول له «**وإنِّي مخبرك عن صاحب لي كان من أعظم النّاس في عيني، وكان رأس ما أعظمه في عيني صغر الدّنيا في عينه، كان خارجا من سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجا من سلطان فرجه فلا يدعو إليه ريبة ولا يستخفّ له رأيا ولا بدنا، وكان خارجا من سلطان لسانه فلا يقول ما لا يعلم، ولا ينازع فيما يعلم، وكان خارجا من سلطان الجهالة فلا يقدِّم أبدا إلاّ علمًا ثقةً بمنفعة....فعليك بهذه الأخلاق إن أطعت....ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع**»[1]، يتحدّث ابن المقفّع إلى المتلقِّي الثّاني هنا- وهي الرّعية- فيعرض آداب وقوانين الحياة، وكيفية التّعامل، ونجده ينبّه إلى الأخلاق فكان يتحدث عنها ويقدّمها إلى المتلقّي، ففي اِختيار الصّديق وصفاته يقول: «**اِعلم أنّ إخوان الصِّدق هم خير مكاسب الدّنيا، زينة في الرّخاء وعدّة في الشِّدة ومعونة على خير المعاش والمعاد**»[2] وفي حسن معاملة النّاس يقول «**اِبذل لصديقك دمك ومالك ولمعرفتك رفدك ومحضرك، وللعامّة بشرك وتحنّكك ولعدوِّك عدلك...**»[3].

كما نجده يوجب في علاقة الصّديق وعدوِّه بأن تتّصف بالعدل والرِّضا فيقول «**لتكن غايتك فيما بينك وبين عدوِّك العدل، وفيما بينك وبين صديقك الرّضا...**»[4].

تراوح المتلقِّي عند ابن المقفّع من راع ورعيّة، فذكر مراتبهم في التّعامل ويرجو بعد ذلك ردّ فعل هذا المتلقِّي في العمل بأفكاره، التي سيكشف عنها من خلال فكِّ رموز هذه الخطابات والتّوصّل إلى مقاصدها.

اِعتمد ابن المقفّع مسارا تواصليّا واِنطلاقا من الإعلام والإخبار، ليصل إلى المرسل إليه بنقله للمعلومات التي يراها ضروريّة قصد إفهامه وتعليمه. «**فالمخاطب لا يقول إلاّ ما يراه صحيحا ولا يأمر إلاّ بما يريد تحقيقه ولايسأل إلاّ عن الشّيء**

1- ابن المقفع: **الأدب الكبير**، ص124 – 125.

2- المصدر نفسه، ص71.

3- نفسه، ص65.

4- نفسه، ص74.

الذي يريد معرفته»[1]، ويهدف اِبن المقفّع في هذا المسار إلى التّأثير في المخاطَب وتغيير معتقداته، ولتوضيح ما قلناه نقترح هذا المخطّط[2]:

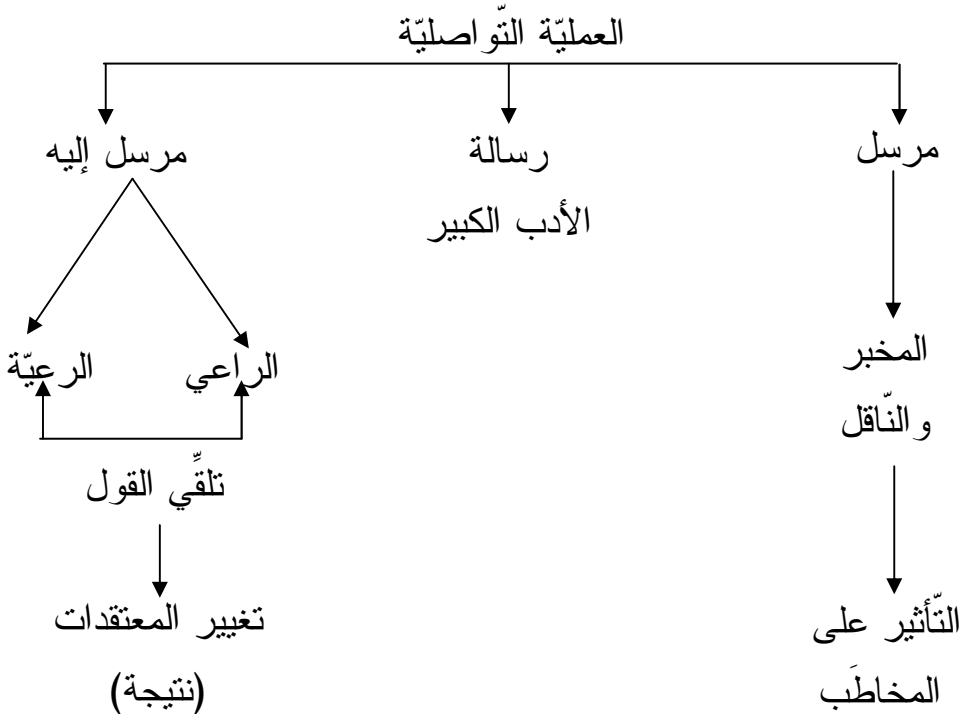

هذا المخطّط يشرح العلاقة التّخاطبيّة في صورتها الكاملة والإشارة إلى مقاصدها الاِستهلاليّة من جانبها التّبليغي أو التّعاملي والتي سيكون الكشف عنها فيما سيأتي.

1 - Maingueneau : **Pragmatique pour le discours littéraire**, édition Bordas, Paris, 1990, P105.

2- فتيحة بوسنة: **إنسجام الخطاب في مقامات جلال الدين السيوطي**، ص67.

الفصل الثّاني

تجلِّيات المقاصد الموضعيّة

سنسعى من خلال هذا الفصل إلى استكشاف مقاصد ابن المقفّع باعتبارها بعدا من أبعاد الخطاب، تكتسب فيه قصديّة المؤلِّف وقصديّة المؤلَّف بعدًا جدليًّا[1] يتوسّل بها القارئ من أجل التّواصل والكشف عن المقاصد الحقيقيّة، استنادا إلى الوقائع التّاريخيّة والثقافيّة والفكريّة «**فإنّ كلّ تأويل لا يجوز أن يتناقض مع بعض المعطيات الموضوعيّة (تاريخيّة أو لغويّة...)**»[2].

1-استراتيجيّة قصد الإخبار:

إنّ الكلام حسب "جاكوبسون" Jackobson «**يجب أن يُدرس من خلال وظائفه، ولمعرفة هذه الوظائف وجب أن نلقي نظرة وجيزة على العوامل المقوِّمة لكل أداء لسانيٍّ أو عمليّة تبليغ لفظيّة، هناك مراسل يرسل خطابا إلى مخاطَب ولكي يكون هذا الخطاب فعاليًّا لابدّ أن يكون مُحالا على سياق، وهذا السِّياق يجب أن يُدرك من المخاطَب، ويكون إمّا لفظيّا أو قابلا للصّياغة اللّفظيّة...**»[3].

ويشكِّل الإخبار القصد والغرض من التّخطاب بصفة عامة، وهو من الأسس التي يتجسّد بواسطتها الفكر وينتقل إلى المتلقي، حيث يلتقي مفهوم الإخبار بمفهوم التّواصل الذي يتحدّد في النّمط الخاص للعلاقة الداخلية بين المتكلِّم والمخاطَب وهو إيصال الخبر حسب رأي "**ديكرو**" بمعنى تزويد المخاطَب بمعارف لم يدركها سابقا[4]، ويقول أيضا «**على المخاطِب تقديم معلوماتٍ لازمة والتي غرضها إفادة المخاطب**»[5]. إنّ الإخبار إذن هو الشّرط الذي يخضع له الكلام والذي هدفه إخبار السّامع، ولا يمكن أن يتمّ ذلك إلاّ إذا كان هذا الأخير يجهل ما يُقال له[6].

1- ينظر: فتيحة بوسنة: **إنسجام الخطاب في مقامات جلال الدِّين السّيوطي**، ص117.

2- رشيد الإدريسي: **سيمياء التّأويل-الحريري بين العبارة والإشارة**، ط1، شركة النشر والتّوزيع المدارس، الدار البيضاء، 2000، ص30.

3- محمد الصّغير بنّاني: **النّظريات اللّسانية والبلاغية عند العرب**، ص200.

4 - O.Ducrot : **Dire et ne pas dire**, Hermann, Paris, 1980, P200.

5 - Ibid, P204.

6 - Ibid, P133.

ويعرّف "**عبد العزيز عتيق**" الخبر «**أنّه ما يصحّ أن يُقال لقائله إنّه صادق فيه أو كاذب، فإن كان الكلام مطابقا للواقع كان قائله صادقا وإن كان غير مطابق له كان قائله كاذبا**»[1]، وقد يُلقى الخبر لأحد الغرضين:[2]

1. إفادة المخاطب الحكم الذي تضمّنته الجملة أو العبارة ويسمّى بفائدة الخبر.

2. إفادة المخاطب أنّ المتكلِّم عالم بالحكم ويسمّى ذلك لازم الفائدة.

ففي **الغرض الأول** (فائدة الخبر) المتكلِّم يلقي الخبر إلى المتلقّي الذي يكون جاهلا لحكمه أو مضمونه، ويقصد المتكلِّم هنا تعريف المتلقّي بشيء أو بأشياء كان يجهلها.

أمّا **الغرض الثاني** (لازم الفائدة) المتكلِّم يلقي الخبر على المتلقّي فيخبره بأمر يعلمه، ولكنّه يريد أن يصرِّح بأنّه أيضا على علم به.

وفي الحالتين ينبغي على صاحب الخبر أن يأخذ في اِعتباره حالة المخاطَب عند إلقاء الخبر، أي مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

ففي **الأدب الكبير** إنّ المرسل هو اِبن المقفّع الذي وجّه كلامه إلى مرسل إليه وهم معاصروه (الراعي أولاً والرعيّة ثانيا) وهذا الخطاب جاء ضمن سياق معيّن وهو تلك الظّروف التي أُنجز فيها الكتاب ضمن العوامل النّفسيّة والاِجتماعيّة... والتي تزامنت مع فترة إنجازه فنجده يخبر عن فضل الأوّلين تارة وعن الراعي والرعيّة تارة أخرى.

هَيمن الإخبار في **الأدب الكبير** وبشكل أوسع، فاِبن المقفّع يقدِّم للنّاس معطيات عن فضل الأوّلين عليهم من قوّة جسديّة وفكريّة ومدى عظمتهم وكثرة اِهتمامهم

1- عبد العزيز عتيق، **علم المعاني**، د.ط، دار النهضة، بيروت، 1985، ص37.

2- المرجع نفسه، ص50.

بأمور الدِّين والدّنيا وحسن تسييرهم في جميع الميادين يقول "**إنّا وجدنا النّاس قبلنا كانوا...**" وهي دلالة على إخبار المتلقِّي بأمور كان يجهلها. ليقدِّم بعد ذلك معطيات: كان يُفتح للرّجل منهم باب العلم أو الكلمة/ كانوا يحافظون على علمهم/ خشية الضّياع.... ليصل إلى نتيجة مفادها الأخذ من علمهم وهذا في قوله: أن يأخذ من علمهم/ أن يقتدي بسيرتهم/ أن ينظر في كتبهم...

يعتمد اِبن المقفّع من أجل عمليّة الإخبار مسارا حجاجيّا اِستدلاليًّا تكون البداية بالإخبار، فتقديم معطيات وهي بمثابة حجج وبراهين ليخرج بنتيجة، فالقصد هنا ليس أن يخبر عن فضل الأوّلين، فيكون هذا التّعامل الأوّلي مع هذه المعطيات إنّما هناك مقصدية أخرى، وهنا يتجلّى التّعامل الثاني مع الخطاب من أجل الكشف عن المعنى لأنّه هو الذي يحتوي على القصدية الحقيقيّة، والتي يَكشِف عنها ذلك الاِستدلالُ بالخبر لغرض الإفادة، نجد اِبن المقفّع يحبِّب إلى المخاطَب كلّ تلك الأفعال، واصفا إيّاها بالعظمة وبالمثل الأعلى فكانت في مجال الأخلاق والحكم، لنكشف عن مقاصد وهي تعليم النّاس ووعظهم "**وأنا واعظك**".

إنّ هذه الطّريقة تكشف عن اِستراتيجيّة المتكلِّم في تعامله مع المتلقِّي وكذلك في عمليّة التّواصل، وتتلخّص قصديّة الإخبار في منح المستمع أو المتلقِّي الخبر المفيد وأكبر قدر من المعلومات، ويُحدِّد "**ديكرو**" ذلك فيقول «**إنّ المتكلِّم يجب أن يعطيَ المعلومات اللاّزمةَ التي بحوزته عن موضوع الخطاب، والتي من شأنها أن تنفع المخاطَب**»[1].

ويشير اِبن المقفّع بعد ذلك إلى كيفية تعامل الأوّلين بدينهم ودنياهم وكيف جمعــوا بين هذين العاملين فيقــول: ولم نجدهم غادروا شيئا/ لا في تعظيــم الله عزّ وجلّ/ وترغيب فيما عنده/ ولا في تصغير الدّنيا وتزهيد فيها... هذه المعطيات

1 - O. Ducrot : **Dire et ne pas dire**, P204.

إعلانٌ عن الرّغبة في الاِعتزام والتّوجه ويمكن الإشارة إلى ذلك من خلال المخطّط التالي:

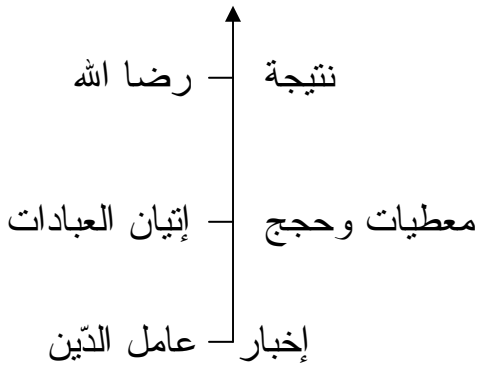

هذا المسار يعبِّر عن مرجعية أخلاقية تمثّلت في وجوب الرّبط بين الدِّين والأخلاق وقد أشار إلى الأخلاق في صورتها المقنّعة (من قول وفعل فإعلان المبادئ الأخلاقيّة العامّة) ليعلن في الأخير عن النّتيجة وهي رضا الله.

كما يتوجّه اِبن المقفّع إلى المخاطَب مرة ثانية فيعرض عليه أمورا تتمثّل في قوانين الحياة عنده، قدّمها مرتّبةً حسب أهميتها وأوّلويّتها ومدى حاجة النّاس إليها في الحياة.

وفي الأخير، يعلن عن قصديّة نكشف عنها من خلال هذه المعطيات فهو يخبر عن أشياء يجهلها المخاطَب، ويقدِّم هذه المعطيات ضمن حجج وصولا إلى نتيجة يريدها اِبن المقفّع وهي قصد الموعظة أي تقبّل الموعظة والنّصيحة. إنّ الغاية من هذه الاِستدلاليّة التّعبيرُ عن موقف المتكلِّم من الموضوع الذي يتكلّم عنه وهو إطلاعٌ على شعور المتكلِّم. «**إنّ النّص الأدبيّ نتاجٌ لمؤلّف ما يُظهر موقفا يوجّه من خلال نفسه نحو العالم، وحيث أنّ هذا الموقف لا يوجد في العالم المعطى الذي يشير إليه المؤلِّف، فإنّه لا يمكن لهذا المؤلّف أن يتّخذ شكلا من الأشكال إلاّ إذا تمَّ إدماجُه حرفيا في العالم الواقعيِّ، وهذا الإدماجُ لا يحدث من خلال المحاكاة البسيطة**

للبنيات الموجودة، بل من خلال عمليّة إعادة بناء هذه البنيات»[1]. فابن المقفّع حين يخبر عن الأوّلين يوجّه نحو مقصديّة أخرى وهي الوقوف على بعض الآفات التي سادت المجتمع زمانه والصّراع الذي ساد الراعي برعيّته، فوظيفة اللّغة «**تجسيدٌ لخبرة المتكلِّم لعالم الواقع**»[2]، بعدما أخبر ابن المقفّع عن الأوّلين وفضلهم، أخذ يخبر عن الراعي والرعيّة وكيف يتعامل كلّ واحد مع الآخر.

الباب الأول: في آداب السّلطان

تناول ابن المقفّع موضوع السّلطان أو (الحاكم) في **أدبه الكبير**، ممّا يجعلنا نفكّر في الجانب السياسيِّ والأخلاقيِّ والاجتماعيّ لهذا الكتاب فهو كتاب في الآداب العامّة لما تناوله من موضوعات. ونظرتُه إلى المَثَل الأعلى للسّلطان جعلته يقترح شروطا للحاكم المثاليِّ سلطانا كان أو وزيرا أو واليا، ومن بينها ما يلي:

أ- شروط الحاكم الصّالح:

1- العلم: فيقول "**إن أُبتليت بالسّلطان فتعوّذ بالعلماء، واعلم أنّ من العجب أن يُبتلى الرجل بالسّلطان فيريد أن ينتقص من ساعات نصبه وعلمه، فيزيدها في ساعات دقته وفراغه وشهوته وعيشه ونومه...**" يرى ابن المقفّع في الولاية ابتلاء فعلى من أُبتلي بها ألاّ يوطن نفسه على نكرات الذّات، ويتفرّغ لها على حساب مصلحته، مستعينا بذلك بالأخيار من رجال الرّأي والفكر والعلم بحقائق الأمور، كما نجده نبّه إلى خطر المسؤوليّة باعتبارها بلاء لصاحبها، فيقدِّم معطيات تتمثّل في: المسؤوليّة/ إرادة العمل/ النّزاهة/ التّضحية بالراحة والملذّات/ مع الاستعانة بالشّرفاء من أهل الرّأي والعلم والحكمة. هذه المقدّمات التي أخبر عنها ابن المقفّع تشير إلى

1- حميد لحمداني: **القراءة وتوليد الدلالة-تغير عاداتنا في قراءة النّص الأدبي**، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2003، ص32.

2- محمد أحمد نحله: **علم اللّغة النظامي- مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليدي**، ط2، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 2001، ص138.

حاكم نزيه يعمل على راحة رعيّته، ونجده يصرّ على قصديّة كشفنا عنها من خلال هذه المقدّمات وهي ضرورة الرّبط بين السّلطان والمعرفة أو نكشف على قصديّة نعبِّر عنها من خلال الثّنائية التّالية (العلم والسّلطان) هذه القصديّة تكشف على قصديّة أخرى وهي أنّ السّلطان العالم سيكون مثاليًّا.

2- الرّأي السّديد: رأي يقوِّي به سلطانه ورأي يزيِّنه في النّاس.

3- الأخلاق الحميدة.

4- التّثبيت عند القول وعند العطاء وعند العمل.

5- الصّدق.

6- العدل في النّظر والقول والعمل.

7- الدِّين والبرّ والمروءة.

8- الصّبر على الشّدائد.

9- ونجده أيضا يحذِّر من بعض الأمور مثل: الإفراط في الغضب والتّسرّع في الرِّضا، الكذب، كثرة البخل، كثرة الحلف، الحقد وحب المدح، فيقول « **ليس للملك أن يغضب لأنّ القدرة من وراء حاجته وليس له أن يكذب لأنّه لا يقدر أحد على اِستكراهه على غير ما يريد وليس له أن يبخل لأنّه أقلّ النّاس عذرا في تخوّف الفقر وليس له أن يكون حقودا لأنّ خطره قد عظم عن مجاراة كلّ النّاس وليس له أن يكون حلاّفا لأنّ أحقّ النّاس باِتِّقاء الإيمان الملوك**»[1].

ومن هنا تكبر مهام الحاكم، فيصير أمر خيره ونفعه للرعيّة أكيدا بصدق عمله، فليس له وهو على هذا القدر من رجاحة العقل: أن يغضب لأنّ القدرة من وراء حاجته، وليس له أن يكذب لأنّه لا يقدر أحد على اِستكراهه على غير ما يريد...

1- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص27 – 28.

هذا الرّأي في **الأدب الكبير** يتردّد بصيغ مختلفة وفي جميع الحالات يقدِّم (الحاكم) في صورة (الخادم) للرعيّة، يرعى مصالحها ويراعي عواطفها، ولا يستغلّها لمصالحها الأوّلية على مصالحه. وهنا يتحدّد موقف اِبن المقفّع الذي يتمثّل في عرضه لقواعد التّعامل أو القوانين الأخلاقيّة بين الراعي والرعيّة، وقد كشفت عنها اِعتقاداته وأفكاره ومقاصده.

وهكذا يتّضح «**أنّ قاعدة القصد تأخذ بعنصر العمل من الجانب التّهذيبي سواء من جهة المتكلِّم أو من جهة المخاطَب**»[1]، وتتفرّغ قواعد التّعامل هذه على مبدأ التّصديق، ونجمعها في ثلاث مع صياغتها على مقتضى قواعد التّخاطب المعلومة ونعرضها ضمن الشّكل التالي: [2]

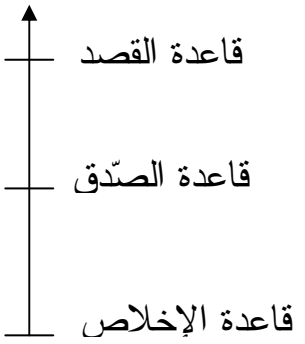

فتكون القاعدة الأولى بمثابة معطيات، أمّا القاعدة الثّانية فيتمّ فيها عرض الحجج والبراهين، لنصل إلى القاعدة الثّالثة المتمثِّلة في قاعدة القصد وبلوغ النّتيجة.

فما حُسن الرّأي لدى الرعيّة في الأساس إلاّ من حسنِ سياسةٍ، وما صلاحُها في النّهاية إلاّ من صلاحه هو أوّلا وأخيرا، إنّ هذا لَإشارة إلى اِستحضار الممارسة السِّياسيّة الهادفة إلى دعم أخلاق الطّاعة.

1- طه عبد الرحمن: **اللِّسان والميزان أو التكوثر العقلي**، ص251.

2- المرجع نفسه، ص250.

يطلب اِبن المقفّع الحاكم بمجاهدة أهوائه فيقول له «**لتكن حاجتك في الولاية إلى ثلاثة خصال: رضا ربّك ورضا سلطان إن كان فوقك ورضا صالح من تلي عليه ولا عليك أن تلهوَ عن المال والذِّكر، فسيأتيك منها ما لا يحسن ويطيب ويكتفي به، واِجعل الخصال الثّلاثة منك بمكان ما لابدّ لك منه، واِجعل المال والذِّكر بمكان ما أنت واجد منه بدّا**»[1] يرى اِبن المقفّع صلاح الحاكم من صلاح السّلطان كما أنّ صلاح الرعيّة من صلاح الحاكم، فالحاكم أساس كلِّ صلاح ويمكن توضيح ذلك في المعادلة الجدليّة التّالية:

قضية-أ-

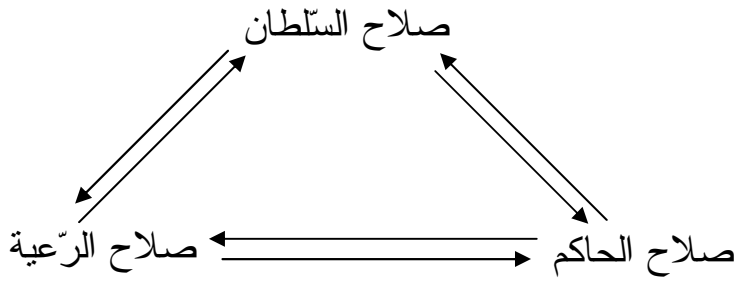

هذه المعطيات تجعلنا نكشف عن مقاصد أخرى لم يصرِّح بها اِبن المقفّع إنّما تضمّنتها هذه المعطيات، هذه القصديّة تمثِّلها القضيّة النّقيضة ونوضِّحها في المخطّط التّالي:

1- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص17-18.

قضية – ب–

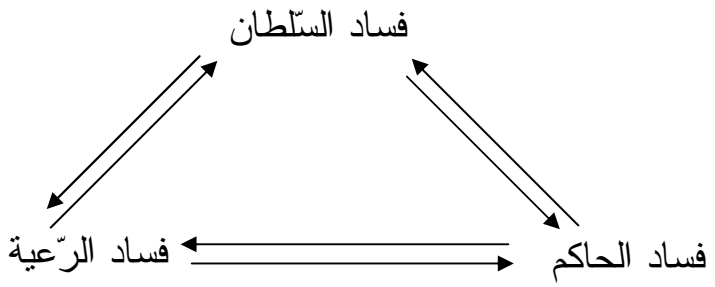

فالنّاس على دين ملوكهم، وبالتّالي السّلطةُ لخير الحاكم والمحكوم معا، وهذا ما جعل اِبن المقفّع يقول: "**إنّا نحمد اللّه، قد أصبحنا نرجو لأنفسنا الصّلاح بصلاح إمامنا، ولا نخاف عليه الفساد بفسادنا** ".

ولمّا تحدّث اِبن المقفّع في شروط الحاكم الصّالح، اِستخلص القوانين التي يقوم عليها.

ب – قوانين الحكم:

1– مشاورة أهل الفضل والعقل في الرّأي الصّالح « **ولا تقذفنّ روعك أنّك إذا اِستشرت الرِّجال ظهر للنّاس منك الحاجة إلى رأي غيرك، فإنّك لست تدري الرّأي للاِفتخار به، ولكنّما تريده للاِنتفاع به، ولو أنّك مع ذلك أردت الذِّكر كان أحسن الذّكرين وأفضلهما عند أهل الفضل والعقل أن يُقال: لا ينفرد برأيه دون اِستشارة ذوي الرأي**»[1].

2– الأخذ بالنّصيحة من أهل العقل والسنّ والمروءة «**عوِّد نفسك الصّبر على من خالفك من ذوي النّصيحة والتجرّع من مرارة قولهم وعدلهم، ولا تسهلنّ سبيل ذلك**

1– اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص18– 19.

إلاّ لأهل العقل والسّن والمروءة لئلا ينتشر من ذلك ما يجترئ به سيفه أو يستخفّ به شانئ»[1].

3- اِختيار البطانة وفق شرطي الدِّين والمروءة.

4- تفويض الأمور إلى الكفاءة.

5- الحزم والمواظبة على العمل وحسن التّسيير وضبط زمام الأمور، وحسن التّدبير من طرف كلّ فرد في جهاز الحكم حتى يظلّ قائما لا يسقط.

يعتمد اِبن المقفّع من خلال خطابه هذا على اِستراتيجية حجاجيّة من أجل هدف وهو التّواصل، فهو يتّبع طريقة سرد الحقائق وبالتّالي الاِستدلال حيث نجده يخبر بإعطاء معطيات التي هي بمثابة حجج وبراهين، ليخرج بنتيجة، هذه السّيرورة الدّلاليّة مبنيّة ضمن سلم حجاجيٍّ. ومن هنا تنبثق معادلة حين التّناغم بين صلاح حاكمٍ لا يتقرّب منه إلاّ الصّالحون في الفكر والرّأي من ذوي الخير والصّلاح ولن تتخلّف الرعيّة في أن تحذوَ حذوه، ليكون بذلك المجتمع سويّا قويّا في ظلّ حاكم عادل قويّ، ومحكوم مطمئنٍّ على حقوقه وحريّته ومصالحه وأمنه وضمن محيط تُعلى فيه قيم الخير والعلم والعمل والفضيلة. والمخطّط التّالي يشرح هذه النّتيجة.

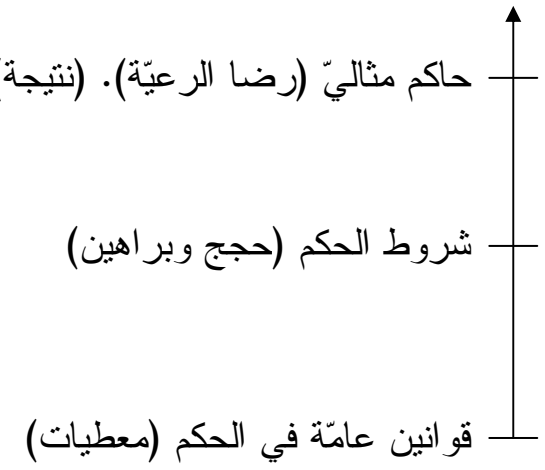

1- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص20-21.

ج- واجبات السّلطان نحو رعيّته:

1- أن يطّلع على أمور العمّال حتى يخاف المسيء ويستبشر المحسن فيقول: «**اِحرص الحرص كلّه على أن تكون خابرا أمور عمالك، فإنّ المسيء يفرق من خبرتك قبل أن تصيبه عقوبتك، وإنّ المحسن يستبشر بعملك قبل أن يأتيَه معروفُك**»[1].

2- أن يعطي الحقوق لأصحابها، ولا يجعل تسرّعه في الغضب والرِّضا، يُرضي من لا يستحقّ ويحرِّم أهل الحقّ.

3- أن يتفقّد الأمر الخطير من الأعمال ومباشرة كبيرها وصغيرها.

4- أن يسدّ فقر الأخيار والأحرار، ويقمع طغيان السّفلة لأنّ الكريم الجائع واللّئيم الشّبعان كلاهما قادر على السّطو.

5- أن يلتمس رضا الأخيار منهم وذوي العقل ويستغني عن رأي المخلفين وعن مَن رضاهم الجورُ والجهالةُ.

6- أن يعرِّف الرعيّة بأبواب الخير عنده.

7- أن يحسن إعطاء المال لأهل الحق، وإكرام أهل الفضل ويفوّض ما دون ذلك إلى الكفاءة.

8- ألاّ يعاجل بالثّواب ولا بالعقاب حتى تكون فرصة للمذنب كي يحاسب نفسه.

9- أن يحسن الظنّ فيهم إن كانوا أهل ثقة.

إنّ أفكار اِبن المقفّع المباشرة منها والرّامزة تبقى آثارا منيرة موجِّهة في مختلف أوجه الحياة وعبر مختلف المستويات اِنطلاقا من أثر الحاكم وتأثيره في مجتمعه ودور ولاّته، فبرزت كلٌّ من صورة (الحاكم) و(المحكوم) مثاليّة إنسانيّة كما يعرضها اِبن المقفّع، فصلاحُ المجتمع لن يكون إلاّ من صلاح حكّامه خيِّرة عالمة

1- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص20.

وهذه لن يكتب لها صلاحٌ كبيرٌ –في رأي اِبن المقفّع– مع حاكم فاسد مفسد وأوجب أن تكون عينُه ساهرة أمام الاِنحرافات، وردع المنحرفين والضّالّين لينتج بذلك مجتمع أساسُه العلمُ والعملُ.

إنّ الاِستراتيجيّة التّواصليّة التي آل إليها اِبن المقفّع تخرج بفائدة لدى الطّرفين المرسل والمتلقّي « **فإنّ كلّ واحد منهما سيجني ثمار ذلك إذا تحقّق التّبادل، وعكس ذلك مآلُه الفشلُ، لذا فإنّ هناك اِشتراكا في الرّبح والخسارة**»[1] فاِبن المقفّع يستعمل كلّ الوسائل لإيصال الخبر، ويستعين– من حيث تمكّنه من اللّغة– بالتّلاعب الحجاجيّ، ليجعل المتلقّيَ يقبل ما يقرأ أو يعمل به، فالكلام الملائم للمقام الذي يكون فيه المتخاطبون يأتي بما يهمّ المتكلّم والمستمع فقط.

إنّ ما قدّمه اِبن المقفّع في الباب الأوّل يمكن تلخيصه ضمن السلم الحجاجيّ التّالي:

فهو إذن يقدّم أولا المعطيات التي هي مفاتيح الإخبار ليعرض بذلك شروط الحكم وقوانينه وواجبات السّلطان كحجج يستدلّ بها، لتكشف هذه السّيرورة الدّلاليّة على مقصديّة قائمة على ثنائيّة (النّفع والضّرر) وهي (الحاكم المثالي ≠ الحاكم الفاسد) إلى مقصديّة أخرى تتمثّل في أنّ صلاح الأمّة يبدأ من الأعلى فالأدنـــى لذلك قدّم اِبن المقفّع الأهميّة الكبرى للحاكم الذي تتصدّره ثنائية (الأخلاق والعلم).

1 - Maingueneau : **Pragmatique pour le discours littéraire**, P102.

ونستعين بهذا المخطّط لنشرح ثنائيّة (النّفع ≠ الضّرر) لكلِّ القضايا المطروحة عند اِبن المقفّع[1].

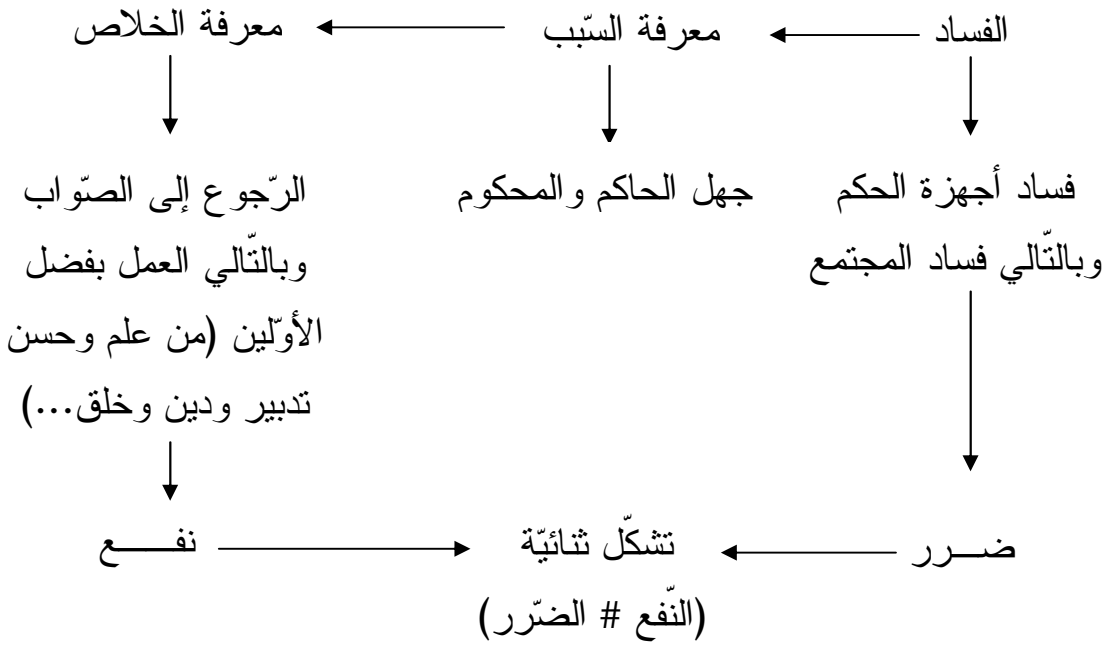

الباب الثّاني: في صحبة السّلاطين

وقد اِجتمعت معظم الشّروط في هذه المقولة: « **لا تكوننّ صحبتك للملوك إلاّ بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم في المكروه عندك وموافقتهم فيما خالفك وتقديره الأمور على أهوائهم دون هواك، وعلى ألاّ تكتمهم سترك ولا تستطلع ما كتموك وتخفي ما أَطلَعوك عليه على النّاس كلِّهم حتّى تحمي نفسك الحديث به وعلى الاِجتهاد في رضاهم والتّلطّف لحاجتهم، والتّثبيت لحُجّتهم والتّصديق لمقالتهم والتّزيين لرُكبهم وعلى قلّة الاِستقباح لما فعلوا إذا أساءوا، وترك الاِنتحال لما فعلوا إذا أحسنوا وكثرة النّشر لمحاسنهم، وحسن السّتر لمساوئهم والمقاربة لمن قاربوا وإن كانوا بعداء، والمباعدة لمن باعدوا وإن كانوا أقرباء والاِهتمام بأمرهم وإن لم يهتمّوا به، والحفظ لهم وإن ضيّعوه والذّكر لهم وإن نسوه**

1- فتيحة بوسنة: **اِنسجام الخطاب في مقامات جلال الدّين السّيوطي**، ص87.

والتّخفيف عنهم من مؤونتك والاِحتمال لهم كلّ مؤونة، والرِّضا منهم بالعفو، وقلّة الرِّضا من نفسك لهم إلاّ بالاِجتهاد... وإن وجدت عنهم وعن صحبتهم غنًى، فأغنِ عن ذلك نفسك، واِعتزله جهدك، فإنّه مَن يأخذ عملهم بحقّه يحلّ بينه وبين لذّة الدّنيا وعمل الآخرة، ومن لا يأخذ بحقِّه يحتمل الفضيحة في الدّنيا والفوز في الآخرة»[1].

الواضح أنّ الخاصّة (أو الوالي) هنا يظهر عبر تلك النّصائح التي يقدّمها اِبن المقفّع والتي تقوم على الطّاعة للحاكم الذي هو السّلطان دون معارضة وهذا يقوم على تدريب النّفس على الطّاعة: لا تكوننّ صحبتك للملوك إلاّ بعد رياضة وهي بمثابة إعلام ليعرض بعد ذلك الحجج وما ينجم من مصاحبتهم: الحاكم طباعه متغيّرة يغضبون ويرضون/ يخطئون ويصيبون/ روِّض نفسك عليهم/ ترضى بما يرضون ...ليصل إلى نتيجة تتمثّل في نصيحة وهي الحذر منهم كلّ الحذر. لتتشكّل قصديّة وهي أن يدرك صاحبُ السّلطان شروط عمله، لأنّه قد اُبتلي به (بالسّلطان).

إنّ اِبن المقفّع لمّا يعرض هذه النّصائح لوالي السّلطان وصاحبه لأنّ من أولى أمر الحاكم تخيّر أصحابه الّذين هم زينة مجلسه وألسنة رعيّته، والأعوان على رأيه ومواضع كرامته. إذن هم صورته لدى الرّأي العام، وعملهم فيه: توجيها صادقا وعملا خالصا عن علم وخبرة بأحوال النّاس بنزاهة تجعل الرّعية تقتنع وتقتدي في فعل الخير، لأنّ الرعيّة في حاجة إلى التّوجيه والإرشاد الحسن.

يقدّم اِبن المقفّع الأهميّة لخاصّة الحاكم (وهم أصحابه) والتي ينبغي أن يتصدّرها رجال الفكر والنّزهاء، لذا يقول له في الأخير "فإنّه من يأخذ عملهم بحقه يحلّ بينه وبين لذّة الدّنيا وعمل الآخرة ومَن لا يأخذ بحقّه يحتمل الفضيحة في الدّنيا والفوز في الآخرة".

1- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص40-41.

ونجده أيضا يبيِّن مضار هذه الصّحبة من خلال المعطيات التّالية: لا تَأمن ألفة الملوك إن أعلمتهم/ ولا عقوبتهم إن كتمتهم/ ولا تَأمن غضبهم إن صدقتهم/ ولا سلوتهم إن حدّثتهم/ إن سخطوا عليك أهلكوك وإن رضوا عنك تكلّفت مِن رضاهم ما لا يطيق، ليعرض بعد ذلك نصائحًا: كن بصيرا بأهوائهم/ مؤثرا لمنافعهم/ ذليلا في ظلمك/ راضيا إن أسخطوك..... ليقدِّم نتيجة قائمة على ثنائيّة (النّفع ≠ الضّرر) أمّا الرِّضا يؤدِّي إلى التّقرب منهم، والضّرر يؤدِّي إلى الابتعاد عنهم والحذر منهم إن هم أساءوا.

إذن، يشير ابن المقفّع إلى أنّ الصّلاح يبدأ من الأعلى فالأدنى فأدناه (الوالي) أو القاضي وصلاح الرعيّة من صلاح الراعي (الحاكم) ويكون فسادها متأتِّيا من فساده وفساد ولاّته، فإنّ ضمان (الصّلاح) مرهون دائما بالكفاءة المعرفيّة والأخلاقيّة في الحكم. وفي هذا حرصٌ شديد على أن تكون الصِّلة قويّة بين (الحاكم) و(المحكوم) يَعرفُ الأوّل انشغالات الثّاني، فينصف المظلوم من الظّالم، ولا يحجب الحقوق عن مستحقِّيها، فينتفع المحكوم بإرادة الحاكم وأفعاله قبل أقواله، وهنا نعرض المعادلة التّالية:

وهنا يبدو الحاكم مثاليّا، والخاصّة والعامّة بين الإيجاب والسّلب، حيث تصير إيجابيّة في حضور حاكم عادل مخلص لربّه وضميره ولرعيّته، وتكون سلبا في عكس ذلك.

إن المقاصد التي يعلن عنها اِبن المقفّع في هذا الباب – في آداب السّلطان– نشرحها ضمن النّتائج التّالية:

يعرض اِبن المقفّع أصناف السّلطان وهو في معيارين: خلقي وعقلاني. فالمعيار الأخلاقي يرمي إلى اِتّهام السّلطان بالهوى أو الرّغبة الشّخصية وهذا النّوع لا يهيِّئ لمصالح العامّة. أمّا المعيار العقلانيّ والذي يرى في السّلطان ضرورة ويُقاس على المنفعة.

واِنطلاقا من هذين المعيارين يميِّز اِبن المقفّع بين ثلاثة أنواع من السّلطان: ملك دين، ملك حزم وملك هوى.

أ- **ملك دين:** ولا يقصد من الدِّين هنا الإسلام وحده، فهو يرى في الدِّين معنًى واسعا جدا يتجاوز العقيدة باِعتبارها إيمانا إلى إدراكها باِعتبارها مجموعة من الممارسات والعادات وتصرّفات المجتمع، والملك الذي يرتكز على الدِّين هو السّلطان الذي يحترم مصالح العامة. يقول اِبن المقفّع "**فأمّا ملكُ الدِّين فإنّه إذا أقام للرّعية دينهم وكان دينهم هو الذي يعطيهم الذي لهم، ويلحق بهم الذي عليهم أرضاهم ذلك وأنزل السّاخطَ منه منزلة الرّاضي في الإقرار والتّسليم**" وهذا الملك هو الأفضل لأنّه يضمن النِّظام وإجماع المجتمع.

ب- ملك حزم: سلطان قوي، من الصّعب إصدار الحكم بصدده لأنّه من جهة يلجأ إلى العنف وبالتّالي يولد الاِستنكار، ومن جهة أخرى يفرض نفسه، يقول اِبن المقفّع "**أمّا ملكُ الحزم فإنّه يقوم به الأمر ولا يسلِّم عن الأمر والتّسخّط**". ويقول أيضا: "**ولن يضرّ طعن الضّعيف مع حزم القوي**".

ج- ملك الهوى: شرّ غير نافع، وتنطلق إدانته من التّجاوزات التي تترتّب عن ممارسته وهو ما يلخِّصه اِبن المقفّع فيما يلي: "**وأمّا ملكُ الهوى فلعبُ ساعةٍ ودمارُ دهرٍ**" إنّ هذا النّوع من الملك هو ما يدينه اِبن المقفّع في سائر كتابه لأنّه يزرع العطل بين العامّة كما بين الحاشية فيقول "**واِعلموا أنّ الملك ورعيته جميعا لحقٌ عليهم أن لا يكون الفراغ عندهم موضعا، فإنّ التّضييع في فراغ الملك وفساد المملكة في فساد الرّعية**" فهذا الملك يهلك نفسه ويهلك العامة معـــه وبالتّالي يسخط اِبن المقفّع على هذا الملك الذي يهمل المصلحة العامّة ويهيِّئ الشّروط للقتل والسّرقة وضعف الإيمان والسّفلة وعدم التّديّن ونجده يقول «**شرّ الزّمان ما اِجتمع فيه فساد الوالي والرعية**»[1].

سلطانان في النِّهاية يوافقان مصالح العامّة، أحدهما يضمن الإجماع دون أن يريق الدِّماء أو يستخدم العنف إلاّ في حالات نادرة جدا والآخر يضمن النِّظام لكن لا يُبدَى رأيُ العامّة عنده. وكلاهما يعتبره اِبن المقفّع إيجابيا مادام الأول يستجيب لمثاله الذي يهيمن عليه البحث عن الاِنسجام الاِجتماعي وعن الإجماع، أما الثاني فلا يقلّ تطابقا مع عصره، وهو عصر مضطرب يطالب بسلطان قويٍّ وفعّالٍ وهذان السّلطانان يتعارضان مع ملك الهوى.

من خلال هذه المعطيات نستنتج أنّ اِبن المقفّع يشير إلى نمط جديد في السِّياسة لم يعرفه معاصروه آنذاك وهو في مسألة السِّياسة وعلاقتها بالحاكم أولا ثم علاقتها بالوالي (وهو صاحب السّلطان) ثانيا وعلاقة الاِثنين –الحاكم وصاحبه– بالرّعية وهذا كلّه ضمن قاعدة أساسها الأخلاق والدِّين.

1- عمر أبو نصر، **آثار ابن المقفع-سلسلة من التراث العربي**، د.ط، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996، ص280.

الباب الثّالث: في الأصدقاء

يرى اِبن المقفّع في الصّديق المثل الأعلى، كما رآه في السّلطان، لقد حاول مرارا أن يلفت اِنتباه المخاطَب إلى تلك الصّفات الحميدة التي وجب على الصّديق أن يتحلّى بها حتى بلغت درجة من الاِستحالة.

لقد جاء كلام اِبن المقفّع حاملا لعّدة معانٍ متضمّنة النّبل وعناصر الصّداقة والأخلاق وغيرها من المبادئ والقيم، فقد وصفه كما يجب أن يكون عليه، ولعلّه يحسّ أنّه يكّلف الناس ما لا يطيقون، يقول عن الصّديق « **وإنّي مخبرك عن صاحب لي كان من أعظم النّاس في عيني و كان رأس ما أعظمه في عيني صغر الدّنيا في عينه، كان خارجا من سلطان بطنه .....وكان خارجا من سلطان لسانه.... وكان خارجا من سلطان الجهالة ... فعليك بهذه الأخلاق إن أطعت ولن تطيق، ولكنّ أخذ القليل خير من ترك الجميع**»[1].

اِستدلّ اِبن المقفّع خطابه بمعطيات تعلن عن فائدتها مُسبقا في الصّفات الحقيقيّة للصّديق، فهو يتجرّد من كلّ الرّذائل ليتحلّى بمجموعة من الفضائل ويريده أن يكون عالما بأمور الدّين والدّنيا، قليل الكلام كثير الجدّ قليل المراء، يأخذ بالنّصيحة، قويّا ذا حيلة في تدبير الأمور كلّها لا يبخل على الناس. هذه المقدّمات تجعل اِبنَ المقفّع يشير إلى مقصديّة هامّة وهي أنّ الإنسان اِجتماعي بطبعه لا يمكن أن يكون في معزل عن النّاس، لذلك يقدّم ويحبّب إليه بعض الصّفات التي يراها ضروريّة فيمن نختاره كصديق، فيقول "عليك بهذه الأخلاق إن أطعت".

إنّ **الأدب الكبير** يأخذ قسطا كبيرا في الحديث عن الأخلاق فكان خطابه مفيدا ممّا يجعله منسجما وبالتّالي منطقيّا، ممّا سيساعد على الكشف وتحقيق المقاصد فنجد اِبن المقفّع يتناول الصّديق، ويقدّم مع ذلك بعض الشّروط في التّعامل معه وتتمثّل في:

1- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص124- 125.

أ- كيفية اِختيار الصّديق:

يقدِّم اِبنُ المقفّع المفاتيح الضّروريّة في اِختيار الصّديق المناسب، لأنّ سوء الأصدقاء أضدّ من بغض الأعداء، فعلى الإنسان أن يتأنّى ويتثبّت في اِختياره للأصدقاء، فيختارهم حسب معايير ومقاييس هي: المروءة/ التّفقّه في الدِّين/ حرّا ليس بجاهل/ صادقا لا كاذبا فالصّديق من الصّدق/ خيِّرا ليس شريرا/ غير مشنوع.

يتناول اِبن المقفّع في هذا الباب قوانين التّعامل بين النّاس، فكان خطابه هذا في الأخلاق والاِجتماعيّة العامّة، ممّا يجعلنا نكشف إذن عن مقاصد تتمثّل في التّفكير الصّائب والعلم الصّحيح والسلوك السّويِّ.

ب- صفات إخوان الصّدق:

وإن وجد الإنسان إخوان الصِّدق، فلا يفرط فيهم، يقول « **إخوان الصِّدق هم خير مكاسب الدّنيا، زينة في الرّخاء، عدّةٌ في الشِّدّة معونةٌ على خير المعــاش فلا تفرطنّ في اِكتسابهم واِبتغاء الوصلات والأسباب إليهم**»[1].

إنّ ما يقوله اِبن المقفّع في الصّداقة والأصدقاء ليس إلاّ توطيدا للعلاقة القائمة بين الرعيّة فيما بينها، لقد بيّن كيف تكون طبيعة العلاقة مع الصّديق ومع العدو وحتى مع أنفسنا، يقول في معاملة النّاس "**اِبذل لصديقك دمّك ومالك ولمعرفتك رفدك ومحضرك، وللعامّة بشرك وتحنّكك، ولعدوك عدلك وإنصافك واُضنن بدينك وعرضك على كلّ أحد**".

تناول اِبن المقفّع موضوع الصّداقة، ووضع حقوقَها، وبيّن ضرورة التّمسّك بالصّديق، لذلك يجب التّمهّل في اِختياره ضمن هذه الشّروط، كما يشير إلى أنّ الاِختيار يجب أن يكون سليما ونوضِّح ذلك في المخطّط التّالي:

1- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص65.

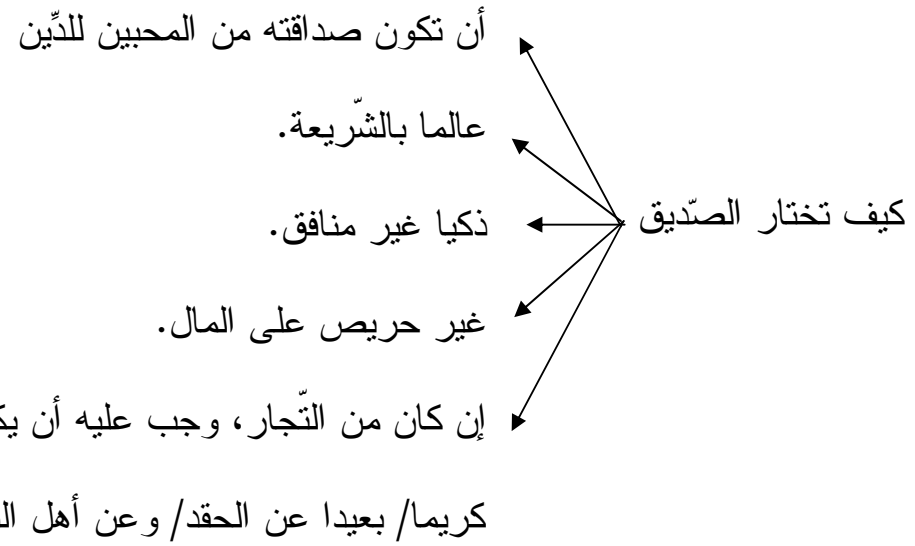

لتكون نتيجة التّعامل مع هذا الصّديق في الأخير العدل والرضا، فيقول: «**لتكن غايتك فيما بينك وبين عدّوك العدل، وفيما بينك وبين صديقك الرِّضا، وذلك أنّ العدوّ خصم تصرعه بالحجّة وتغلبه بالحكّام، ولأنّ الصّديق ليس بينك وبينه قاضٍ، فإنّ حكمه رضاه**»[1].

يشير اِبن المقفّع في خطابه هذا إلى ثنائيّة (النّفع ≠ الضّرر) لذلك يُصرّ على كيفيّة اِختيار الصّديق، وسنحاول أن نشرح هذه المعطيات للتّعرف على الصّديق المثاليِّ والعدو فيما يلي:

1 – اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص74.

القضيّة – أ–	**القضيّة – ب – (النّقيضة)**
– العلم	– الجهل
– مدرك لأمور الشّريعة	– الكذب
– صادق	– لا يُصدق في مودّته
– أمين	– شرير يجلب العداوة
– كريم قائمة على (النّفع ≠ الضّرر)	– قبيح/ مشنوع
– من أهل الفضائل	– أحمق/ سافه
صديق عادل	صديق لا يُؤتمن به (عدوّ)

ج– كيفية معاملة العدوّ:

لم يترك اِبن المقفّع أيّ أمر من أمور المعاملات والآداب الإنسانيّة فنجده أيضا يشير إلى كيفية معاملة العدوّ ضمن المعطيات التّالية:

عدم إخباره بالعداء له/ مصادقة أصدقائه/ مؤاخاة إخوانه/ صيانة النّفس، ويقول: **«وإن أُبتليت بمحاربة عدوّك فخالف هذه الطّريقة التي وُضعت لك من اِستشعار الهيبة وإظهار الجرأة والتّهاون، وعليك بالحذر، والجدّ في أمرك والجرأة في قلبك حتّى تملأ قلبك جرأة ويستفرغ عملك الحذر»**[1].

1– اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص93.

هذه المعطيات تكشف عن مقصديّة يعلن عنها اِبن المقفّع وهي الاِبتعاد عن صديق السّوء الذي يجلب العداوة. إنّ المنهج الذي يسير وِفقَهُ اِبن المقفّع لإدراك مقاصده هو منهج اِستدلاليٌّ نوضّحه كما يلي:

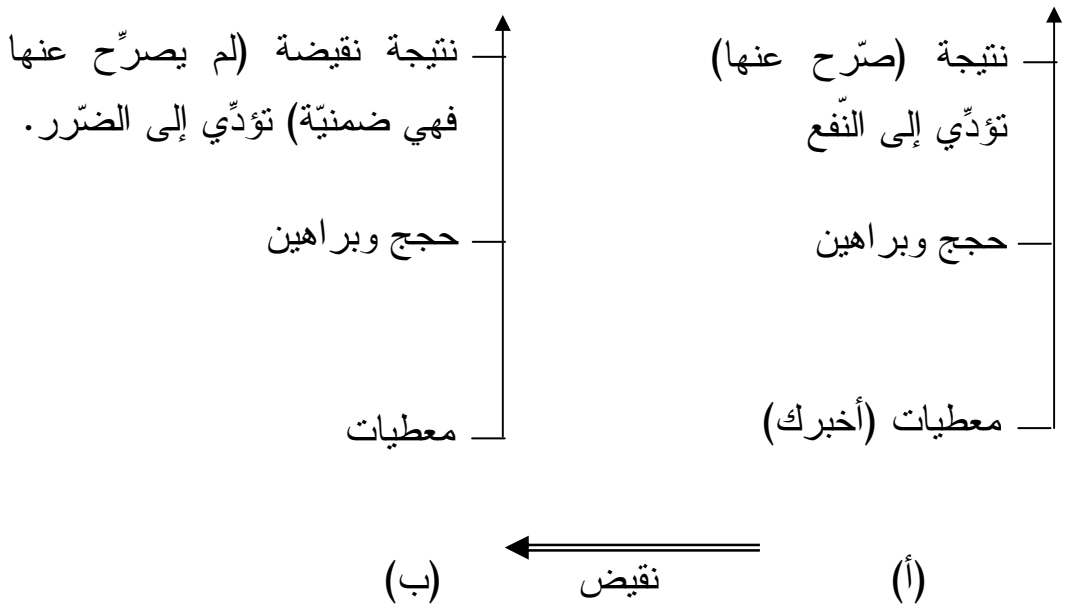

يقدِّم لنا اِبن المقفّع أمورا عدّة، فإن عمل بها الفرد في مجتمعه ساد الأمن والطّمأنينة، وتحسّنت العلاقة بين النّاس، هذه المعطيات يشير إليها اِبن المقفّع وفق ثنائيّات متضادّة، جاءت كما يلي[1]:

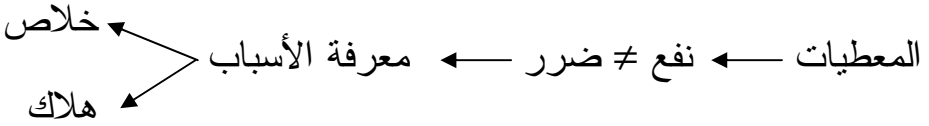

إنّ المعطيات التي يقدِّمها اِبن المقفّع ليست إلاّ أمورا وصورا في المجتمع بأنواعها، قائمة على ثنائيّة (النّفع ≠ الضّرر) وتستلزم وجود أسباب، وبإدراك هذه الأسباب نصل إلى نتيجة، فإن عَمَلَ المتلقِّي بما ينفعه كان خلاصا وإن عمل بالضّرر كان هلاكا له.

1- فتيحة بوسنة: **اِنسجام الخطاب في مقامات السّيوطي**، ص86.

د – آداب المجالسة:

ويشرح اِبن المقفّع هذه الآداب فيقول: «**تعلّم حسن الاِستماع، كما تتعلّم حسن الكلام، ومن حسن الاِستماع إمهال المتكلِّم حتى ينقضيَ حديثه، وقلّة التّلفّت إلى الجواب والإقبال بالوجه والنّظر إلى المتكلِّم والوعي لما يقول، واِعلم فيما تكلِّم فيه صاحبك، أنّ ممّا يهجّن صواب ما يأتي به ويذهب بطعمه وبهجته ويزري به في قبوله عجلتك بذلك وقطعك حديث الرّجل قبل أن يفضي إليك بذات نفسه**»[1] هذه الأفكار تمثِّل قوانين التّعامل مع مَن تجالسه، هذه الآداب نستنتجها كما يلي: عدم مجالسة أيّ اِمرئ بغير طريقته/ وإن خالف ذلك بمقابلة الجاهل بالعلم/ والجافي بالفقه/ والعاجز بالبيان/ فلا تجني شيئا إلاّ تضييع العلم وإذاية ذلك الجليس/ فذكرُ العلم عند غير أهله جهل/ واللّعبُ واللّهو عند مَن لا يعرفه ثقلٌ وغمٌّ .

إنّ ما يقدِّمه اِبن المقفّع، يجعلنا نفكِّر في نوعين من المجالس: مجلس خير في ظلِّ أهل العلم والنّزاهة والخير، ومجلس سوء في ظلّ أهل الجهل والجهالة. هذه الأفكار متناصّة في مقاصدها مع قول الرّسول (ص) "**ومَثَلُ جليسِ الصّالحِ وجليس السّوء كحامل المسك ونافخ الكير**".

وفي الأخير، يمكن أن نقول أنّ اِبن المقفّع يشير إلى الأنواع التي نجدها في الصّديق، وتتمثّل في: الصّديق العدل المثاليّ وآخَرُ شرير يستهتر بفعل القبائح ويجلب لك العداوة والجاهلُ الذي يفرّ منه الأصحاب والكذّاب الذي لا يُصدق في موّدته، والمتنوِّعُ الذي يفضحك بين النّاس.

وفيما يلي سنشير إلى نمط آخر قصد الإخبار وهو ما سنكشف عنه في هذه الأمثلة، يقول اِبن المقفع:

– كلّ أحد حقيق حين ينظر في أمور النّاس[2].

1– اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص119.

2– المصدر نفسه، ص29.

- رجاح ما يحتاج إليه الوالي من أمر الدّنيا رأيان: رأي يقوّي به سلطانه ورأي يزيّنه في النّاس[1].
- الرّأي لك تصحيح النّصيحة على وجهها[2].
- لا عيب على الملك تعيّشه وتنعّمه ولعبه ولهوه إذا تعهّد الجسيم من أمره بنفسه أو أحكم المهمّ وفوّض ما دون ذلك إلى الكفاة[3].
- أحقّ النّاس باتِّام نظره بعين الرّيبة وعين المقت السّلطان[4].

هذه الجمل الإخبارية خالية من أدوات التّوكيد لأنّ المخاطب نجده خالي الذّهن من الحكم، لذلك انعدمت أدوات التّوكيد، ويسمّى هذا الضّرب من الخبر ابتدائيا بمعنى أنّ المخاطب يفترض فيه أنّه لا يعلم تلك الأخبار.

وفي الأخير، سنبحث عن الكيفية والقواعد المساهمة في تشكّل النّشاط الخطابيّ في **الأدب الكبير** وسنشرح القوانين الأخرى التي أشار إليها "**جرايس Grice**"، هذه القوانين التي تجعل المتكلِّم يقول ما يريد دون أن يصرِّح بذلك والمرسل إليه (المخاطَب) يفهم ما لم يصرّح به، فهي إذن مبدأ خضوع المخاطب للمتلقِّي وخضوع المتلقِّي للمخاطب[5]، وهذه القوانين من الآليات التي تتحكّم في الحديث، كما أنّ الغرض منها هو تمكين المتكلِّم من صياغة أقواله التي تعيقه ومحاولة التّصريح بهذه الظّروف والعراقيل ليتوصّل المستمع في الأخير إلى إدراك ما لم يرد المتكلِّم الإفصاح عنه.

1- ابن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص34.

2- المصدر نفسه، ص59.

3- نفسه، ص29.

4- نفسه، ص30.

5 - Voir : C.K. Orecchioni**, L'implicite**, P195.

ويرى "**ديكرو**" «**أنّ المحيط الذي اُستعملت فيه تلك الأقوال والمتمثّل في الأشخاص المشاركين في المحادثة وأيضا زمان ومكان المحادثة تلعب دورا في تحديد القيمة المرجعية للكلام، كما يلعب السّياق دورا مهما في فهم تلك الأقوال**»[1]، هذه الأقوال متنوّعة ومختلفة عن بعضها البعض ولكنّها متداخلة.

فقانون المشاركة يمكّن المخاطبين من تبادل الكلام وهذا ضمان لعدم اِنقطاع التّواصل، هذه العلاقة بينهما تُبنى على الاِحترام، فالأوّل يتحدّث والآخر يستمع وهكذا دواليك[2].

إنّ هذا المبدأ الذي يُبنى على تبادل أدوار الكلام، وكما نلاحظ أنّه لا توجد أجوبة في **الأدب الكبير**، ومع اِنعدام هذه الأجوبة المباشرة نفترض مشاركة ضمنيّة من خلال اِفتراض مخاطَب يستمع ويشاركه الكلام، ويظهر ذلك عندما يستعمل اِبن المقفّع الأمر والنّهي، هنا يجعلنا نفترض أنّ هناك مشاركا يشاركه التّأدية الكلامية وما لجوءُ اِبن المقفّع إلى وسائل الإقناع إلاّ حجّة ذلك، ليبيِّن ما يريد ويقصد. فهو يفترض وجود مشارك أمامه، هذا الأخير قد لا يعجبه كلام اِبن المقفّع لذلك يعمل على إقناعه ومحاورته كأنّه أمامه، خاصة وأنّه يخاطبه بضمير المتكلِّم المتوجّه إلى ضمير المخاطَب الموجّه أمامه مثل: اِعلم/ إنِّي مخبرك/ اِعرف/ اِفعل/ لا يغرنّك/ لا تحبسنّ...

قانون الإفادة ويعتبر المركز الذي تدور حوله القوانين الأخرى، ذلك أنّ الخطاب يتوقّف على مدى اِستفادة المتلقّي من كلام المخاطب وما ينتج من هذا القانون أنّ الخطاب المفيد هو الذي تنجز عنه نتائج يستفيد منها المتلقّي، وهذا ما أراده فعلا **اِبن المقفّع** في تناوله موضوع كتابة تاريخ الأوّلين، إذ يفترض أن يحقِّق فائدة بمعرفة المتلقّي أنّ ذلك يتطلّب مقاييس وموازين، كما أنّ المتلقّي ينتظر الاِستزادة بالأخبار المدعومة بالحجاج. فما نتصوّره نحن في خطاب **اِبن المقفّع** أنّه

1 - O.Duccrot : **Le dire et le dit**, édition de minuit, Paris, 1984, P96.
2 - Voir: Maingueneau : **Pragmatique pour le discours littéraire**, P102.

لو لم يكن مفيدا لما كان متداولا إلى زماننا الحاضر، فقارئُ **الأدب الكبير** سيثري معلوماته ويستفيد من تجارب الأوّلين ويقتدي بهم. والمعروف أنّ الحكمة وُضعت أصلا للإفادة، فاِحتوى خطاب **اِبن المقفّع** الحكمة التي يقصد منها إلاّ النّصح والإرشاد، فهو ينهى عن بعض الرذائل ويحثّ على بعض الفضائل. ولقد لمسنا ذلك في كل محاور الكتاب، فهذا القانون يعتمد على تناسب كلام المخاطِب مع المقـــام فكلُّ الموضوعات التي تناولها **اِبن المقفّع** تناسبت مع الفترة التي عاش فيها وأُنجز فيها **الأدب الكبير**، فقد تناول موضوع السّلطان فتحدّث عن شروط الحكم الصالح وقوانين الحكم وما يجب على مصاحبيه أن يتحلّوا به إلى غير ذلك، كما تطرّق إلى طبيعة العلاقة بينه وبين رعيته، ومن ثم تطرّق إلى طبيعة العلاقة بين الرعية فيما بينها، فتحدّث عمّا يجب أن تتحلّى به من خصال حميدة وما ينبغي عليها تجنّبه... مسترسلا في ذلك من غير تحبّس في الكلام، ومن خلال كلامه لم يخرج عن موضوع خطابه فيبقى على علاقة به إلى نهاية كتابه. فهذه الخطابات بقدر ما هي مفيدة بقدر ما تفيد القارئ على أشياء لم يعرفها لا عن السّلطان آنذاك ولا عن علاقة النّاس فيما بينهم، والمتكلِّم لا يخبر إلاّ بما يفيد المستمع.

لنجد بعد ذلك **حكم الصِّدق**(*) فالمتلقي لو يتمعّن في حياته اليومية يجد أنّ هذه الأفكار لصادقة لما لها من صدًى في المجتمع.

وفي الأخير، نلخِّص **قانون الشّمول** في منح المستمع الخبر المفيد وأكبر قدر من المعلومات، كما أنّه يخضع لقانون الإفادة، لذا على المتكلِّم إيصال أكبر كمية من الأخبار المفيدة ليكون كلامه شاملا، إذن يركِّز هذا المبدأ على كمية المعلومات اللاّزمة وإفادة المخاطَب بها.

ما يمكن اِستخلاصه من كلّ هذه القوانين أنّ قانون الإخباريّة هو الذي هيمن على خطاب اِبن المقفّع، فقد كان حريصا على أن ينقل إلى المتلقي أخبار الأوّلين

*– أشرنا إليه فيما سبق، وسنشير إليه فيما سيأتي.

وفضلهم على الآخرين ويجسّد فكرهم وحضارتهم، ويلي هذا القانون قانون الإفادة الذي يستفيد منه قارئ الكتاب، لأنّه مصاغٌ على شكل أمثال وحكم ونصائح، والقارئ يعرف أنّ هذه القوالب الأدبيّة وُضعت أصلا للاِستفادة منها. أمّا قانونا الصّدق والشّمولية فقد جاءا متداخلين مع القانونين السّابقين. وكلُّ هذه القوانين متداخلة ومجتمعة أعطت لخطاب اِبن المقفّع ميزة خاصة، فهي تساعد القارئ على الفهم والتّأويل. فهذه القوانين ترتبط بالمحتوى، فكيف نتصوّر خطابا دون معلومات أو دون فائدة أو حتى خطابا كاذبا، فلا أهمية لخطاب دون هذه القوانين، فهو بمثابة نصٍّ فارغ خالٍ من المحتوى.

لقد ألمّ اِبن المقفّع في **الأدب الكبير** بقدر من المعلومات التي كانت بحوزته والتي تخصّ ذلك الوقت الذي عاصره، فألقاها على المتلقّي، هذه المعلومات بدورها لم تخلُ من الإفادة، فجاء بذلك خطابه شاملا ملمًّا بكلّ المعلومات إلاّ التي أخفاها قصدا وذلك نظرا للمقام الذي أُنجز فيه الكتاب، متجنّبا إيّاها ببعض الحيلة والذّكاء.

هذه المعلومات تتعلّق بالظّروف السياسيّة التي سادت آنذاك «**فقصدُ المتكلِّمِ لا يتحقّق إلاّ من خلال السِّياق**»[1]، ولعلّ السِّياق الذي قيل فيه الخطاب هي المرآة التي عبرها يتمّ التّأويلُ من أجل التوصّل أو معرفة مقاصد المتكلِّم.

تمتدّ وظيفة اللّغة عند **اِبن المقفّع** إلى أفق أوسع من التّواصل ليستعمل آليات أخرى في اِستراتيجيّة الإخبار، فيقول للمتلقّي (اِعلم) وتكمن وظيفة هذه اللّغة في تحويل بعض الأقوال الصّادرة عن وضعيّات سياقيّة إلى أفعال ذات بعد اِجتماعيٍّ تقول **أوركيوني** «**إنّ الكلام بدون شك هو تبادل للمعلومات ولكنّه أيضا تحقيق لأفعال مسيّرة وفق منظومة من القواعد من شأنها تغيير وضعيّة المتلقّي وتغيير**

1- قادة عــڤاڤ: **في السِّيميائيات العربية، قراءة في المنجز التّراثي**، مخبر النّقد والدِّراسات الأدبية واللِّسانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، مكتبة الرّشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص75.

منظومة معتقداته أو وضعه السّلوكيِّ، وينجز عن ذلك أنّ فهم قول معيّن يعني التّعريف بمحتواه الإخباريِّ وتوجّهه التّداوليِّ، أي قيمته وقوّته الكلاميّة»[1].

يميِّز "**أوستين**" بين نوعين من الأقوال، وتتمثّل في الأقوال التّقديرية أو الأقوال الخبريّة، أمّا النّوع الثّاني وهي التي تخضع لمعيار التّصويب وميزتُها أنّ الخطاب بها يساوي تحقيق فعل في الواقع وهي الأقوال الإنشائيّة.

تتحدّد هذه الأفعال الإنشائيّة في الأفعال التي تُنجز طلبا والتي تصف حالة ويمكن تمثيله كما يلي: [2]

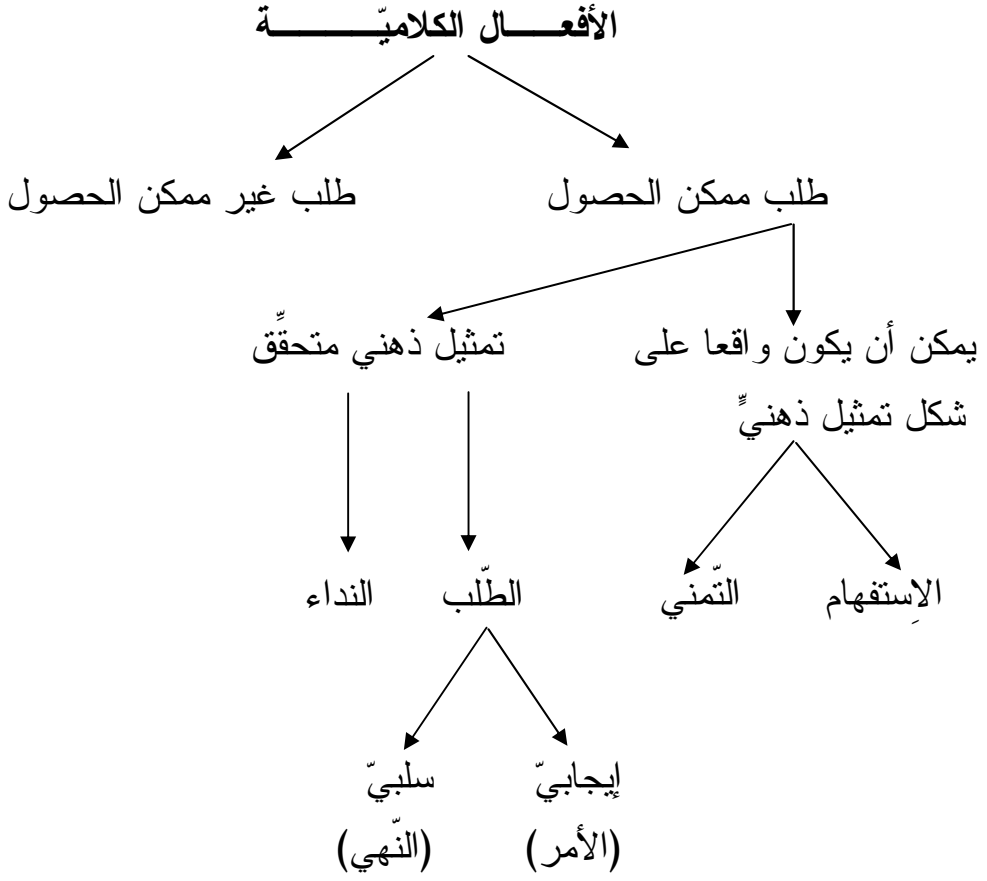

1 - C.K.Orecchioni : **L'énonciation de la subjectivité dans le langage**, 2ème édition, Armand collin, Paris, 1980, P185.

2- ينظر: عمر بلخير: **الخطاب تمثيل للعالم، مدخل إلى دراسة بعض الظواهر التداولية في اللّغة العربية**، رسالة ماجستير، الجزائر، 1997، ص157.

أسبغ **ابن المقفّع** خطابه مجوعة من الأساليب، فطغت أساليب النِّداء والطلب والاِستفهام والتّمني، وجاء الأمر والنّهي في معظم خطاباته، يقول **الجرجاني** «**فينبغي أن يُنظر إلى الكلمة قبل وصولها في التّأليف وقبل أن تصير إلى الصّورة التي بها يكون الكلمُ إخبارا ونهيا واِستخبارا وتعجبا**»[1].

وهذا ما نجده في **الأدب الكبير** الذي قسّمه اِبن المقفّع إلى قسمين، كما ذكرنا فخصّ الأوّل منه بأحوال الحكم وفيه بابان، أمّا الأول في آداب السّلطان والثّاني في صحبة السّلاطين، أما القسم الثّاني من الكتاب فخصّصه لأحوال الرعيّة وعلاقة بعضها ببعض، فكان عنوانه الأصدقاء.

توجّه **ابن المقفّع** في الباب الأول من القسم الأول بخطابه إلى نوعين من المخاطَب، الوالي أو الحاكم، وبما أنّه في مرتبة دنيا مقارنةً بالسّلطان الذي هو أعلى منه تجرّدا، أحال خطابه إلى غيره (الأوّلين) ممّا جعل خطابه يتميّز بنوع من الإخباريّة فوجّه هذا الأخير بطريقة تختلف عن ذلك الموجّه إلى الرعيّة فليس للمحكوم على حاكمه إلاّ مخاطبته بطاعة واِحترام، وفي هذا المقام نجد اِبن المقفّع يحاول لفت اِنتباه السّلطان بتناوله لشروط الحاكم الصّالح واِقتراحه لقوانين الحكم فنظر إلى السّلطان كما يجب أن يكون كاملا في حكمه وسياسته وأخلاقه وحسن سيرته، ولمّا كان ينظر إلى السّلطان نظرة إلى المثل العليا، فهو إقرار على حقائق الأقدمين الّذين مثّلوا أنظمة الحكم أحسن تمثيلا، فكان حريصا على نقل أخبارهم فقدّمها للسّلطان – الذي عاصره – على شكل اِقتراحات.

وهذا لم يمنع ورود بعض الجمل الإنشائية التي جاءت بصيغة الأمر (اِعلم) وهذا الفعل إخباريّ أقرب منه إلى الأمر، فكأنّه يقول (أُخبرك) فلا حقّ له أن يأمر مَن هو أعلى منه مرتبةً، وهذا لعدم التّكافؤ الاِجتماعي بين الطّرفين.

1– عبد القاهر الجرجاني، **دلائل الإعجاز**، سلسلة الأنيس، موفم للنشر، د.ط، الجزائر، 1988، ص31.

لمّا يستعمل ابن المقفّع الفعل (اِعلم) فلأنّه يريد أن ينقل بعض الأخبار إلى المتلقِّي، فكلمة (اِعلم) تدلّ على جهل المتلقِّي لِما يقوله المخاطِب، «**هذه الوظيفة تركِّز الكلام على المخاطَب، وتتجلّى في صفتي المنادى والأمر، وتختلف عن وظيفة الإخبار بنيةً ومضمونًا، حيث لا تحتمل الصّدق ولا الكذب**»[1].

لمّا يستعمل ابن المقفّع الأمر يكون الغرض منه النّصح والإرشاد يقول ابن المقفّع «**اِعلم أنّ حفظ الصّوت وسكون الرّيح ومشي القصد من دواعي المــودّة إذا لم يخالط ذلك بأوٌ ولا عُجبٌ، أمّا العجب فهو مِن دواعي المقت والشنآن**»[2].

فابن المقفّع يعلم هذه الأشياء والمعطيات ويريدها للآخرين فيعملوا بها. ويقول أيضا «**اِعلم أنّ المستشار ليس بكفيل، وأنّ الرّأي ليس بمضمون**»[3]، وفي موضع آخر «**واِعلم فيما تكلّم به صاحبك، أنّ ممّا يهجن صواب ما يأتي به ويُذهب بطعمه وبهجته ويزري في قبوله عجلتُك بذلك، وقطعُك حديث الرّجل قبل أن يفضي إليك بذات نفسه**»[4]. نستخلص من هذه الأفكار كلِّها أنّ ابن المقفّع يعلن عن قواعد التّعامل، حيث احتاج النّاس إلى مَن يذكِّرهم بها، وقد آل ابن المقفّع إلى قالب فنيٍّ وهو المثل والحكمة، فتُسحر هذه اللّغة المتلقِّي، لِما لها من أفكار متناصّة مع القرآن الكريم خاصّة، ليؤدِّي ذلك إلى تقبّل النّصيحة والعمل بها، فيُوصل المخاطِب إلى الهدف المقصود، الشّيء الذي يجعل ابن المقفّع صادقا في قوله، ممّا يضبط الجانب التعامليَّ بين النّاس.

ويقول ابن المقفّع «**واِعلم أنّ انقباضك عن النّاس يكسبك العداوة وأنّ انبساطك إليهم يكسبك صديق السّوء، وسوءُ الأصدقاء أضرّ من بُغض الأعداء فإنّك إن واصلت صديق السّوء أعيتك جرائرُه، وإن قطعته شانَك اسم القطيعة وألزَمَك**

1- محمد الصّغير بنّاني: **النظريات اللّسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبين**، ص201.

2- ابن المقفع: **الأدب الكبير**، ص117.

3- المصدر نفسه، ص119.

4- نفسه، الصفحة نفسها.

ذلك مَن يرفع عيبك ولا ينتشر عذرك، فإنّ المعايب تُنَمِّي والمعاذير لا تنمِّي»[1] فالإنسان الذي لا يختلط بأفراد مجتمعه وينقبض عنهم يكسب عداوتهم، ومَن يخالط جميع النّاس دون تمييز يكسبه ذلك صديقَ السّوء، فالصّديقُ السّيء أخطر من كره الأعداء له، ومن يعاشر صديق السّوء يصبح بين خيارين: إمّا أن يلازمه دائما فتتبعه أخطاؤه وزلاّته، وإمّا أن يقاطعه، فيشينه ذلك، فلا يعذرونه في تلك المصادقة لذلك على المرء أن يتّخذ موفقًا وسطًا وأن يكون متوازنا فيمن يختاره كصديق، هذه الأفكار واضحة ومرتّبة ترتيبا منطقيّا تؤسِّس لفكرة أنّ الإنسان اِجتماعيّ، فهو لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن النّاس، إلاّ أنّ اِبن المقفّع قدّم للقارئ المعطيات التي بها يمكن أن يختار صديقا مثاليّا عادلا.

ويقول أيضا "**عوِّد نفسك الصّبر على من خالفك من ذوي النّصيحة والتّجرّع لمرارة قولهم وعدلهم، ولا تسهلنّ في سبيل ذلك إلاّ لأهل العقل والسّن والمروءة** " يأمر اِبن المقفّع الحاكم لأن يجالس أهل العلم والمروءة والسنّ فيأخذ من علمهم وخبرتهم، وتكشف هذه المعطيات بمقصديّة وهي ضرورة الرّبط بين العلم والسّلطة ويمكن توضيح ذلك فيما يلي:

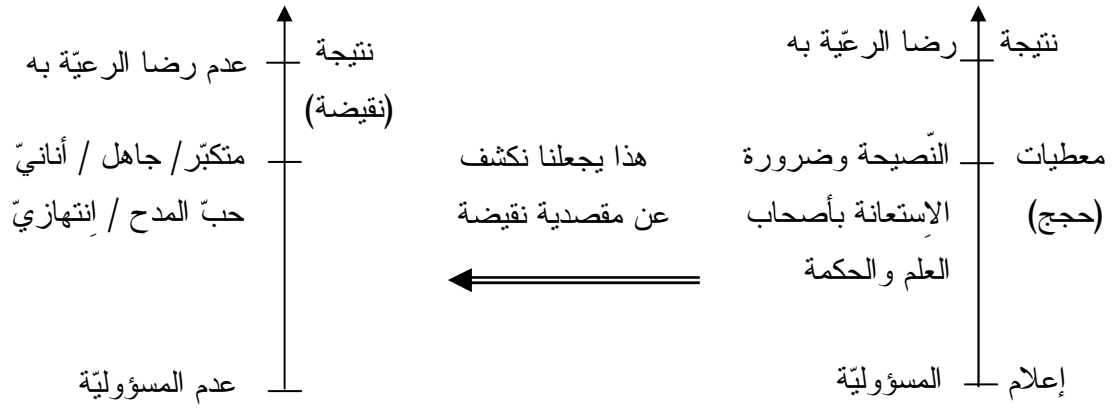

1- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص76.

يهدف ابن المقفّع إلى الرِّضا بالسّلطان وذلك بخدمة الصّالح العام بكفاءة وصدق من دون رياء مع رغبة عن ثناء النّاس، وعدم الالتفات لقدح أو مدح "**إيّاك إن كنت واليا أن يكون من شأنك حبّ المدح والتّزكية**" فمَن يقبل المدح أو ينشده كمن يمدح نفسه، فيرضى بالانتهازيِّين ممّن ماتت ضمائرهم من دون أن يمنع ذلك الحاكم من التماس رضا الشّرفاء والنّزهاء الأخيار، فرِضا هؤلاء دليلٌ على حسن عمله، فيقول: "**ما حاجتك إلى رضا من رضاه الجور، وإلى موافقة من موافقته الضّلالة والجهالة، فعليك بالتماس رضا الأخيار، وذوي العقل...**"

ممّا يقتضي للحاكم مستوًى من الحكمة ورجاحة العقل، وهذا يكشف عن قصديّة لم يصرِّح بها ابن المقفّع، إنّما ندركها من خلال هذه المعطيات وهي الصِّراع بين العلم والجهل أو بين المعرفة والسّلطة.

إنّ كلّ طرف في العمليّة التّواصليّة عند ابن المقفّع «**سيجني ثمار ذلك إذا تحقّق التّبادل، وعكس ذلك مآلُه الفشلُ، لذا فإنّ هناك اشتراك في الرِّبح والخسارة وهذا ما يجعلنا نقول إنّ تبادل الكلام نشاط اجتماعي متحقّق**»[1]، يعترف ابن المقفّع من خلال كلامه بالحقّ، لذلك يضمن نجاح العمليّة التّواصليّة، ويوصل أفكاره عبر نشاط خطابيٍّ، هذا المبدأُ يساعد على التّحكّم في العلاقات الاجتماعيّة حيث يكتسب كلٌّ من المخاطِب والمخاطَب فائدة من هذا الخطاب.

طغى الإنشاء في القسم الثّاني من الكتاب لمّا تحدّث عن الصّديق، وهذا يعود لمرتبة المخاطِب فهنا لا يشترط أن يتجرّد من سلطته الإخباريّة فهو بمنزلة الأديب وهو من العامّة –ولأنّ هذه السّلطة غير قانونيّة– فاستعمل الأمر كثيرا لمّا يحثّهم بفعل شيء أو يحبِّبه إيّاهم، ولمّا يحذِّرهم أو ينبِّه من خصلة سيِّئة فيبتعدوا عنها يلجأ إلى النّهي. وفي هذا القسم تراوح استعماله لصيغتي (اِعلم) و(اِفعل) حتّى يخبر المتلقِّيَ بالأخبار التي يريد إيصالها ثم يأمره بالقيام بها أو الابتعاد عنها. لذا نجده

1 - C .K.Orecchioni: **L'implicite**, P197.

يحثّ أو ينهى عن أمر من الأمور، ثم يبيِّن محاسنه أو مساوئه فيقــول:(اِعلم أنّ) ولمّا ينتهي من الفكرة يحبّبه فيقول: اِفعله أو يذمّه فيقول: لا تفعله، إذن يبدأ بالإخبار وينتهي بالحثّ على الشّيء أو التّحذير منه، وقد اِتّبع هذا الأسلوب لأنّه الأنسب لقالب النّصح والإرشاد، فهي ضمن اِستراتيجيّات اِبن المقفّع التّواصليّة.

1.1- خروج الخبر عن معناه الأصليّ:

قد يخرج الخبر عن معناه الحقيقيِّ إلى معنى مستلزم يتلاءم مع سياق الكلام فيؤدِّي بذلك معانيَ جديدة، وما اِحتوى عليه **الأدب الكبير** غرض واحد تلاءم مع المقام وهو النّصح والإرشاد، يقول اِبن المقفّع:

- إنّ صيانة القول خير من سوء وضعه[1].

- إنّ كلمة واحدة من الصّواب تصيب موضعها خير من مئة كلمة تقولها في غير فرصها ومواضعها[2].

- إنّ فضل القول عن الفعل عار وهجنة، وفضل الفعل على القول زينة[3].

- فإنّه هو الذي يتلو السّلطان في سرعة الزّوال[4].

- إنّ الصّبر عليها هو الذي يخفِّفها عنك[5].

- إنّ اِستلابك الكلام خفّة بك، واِستخفاف منك بالمسؤول وبالسّائل[6].

1- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص51.

2- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3- نفسه، ص73.

4- نفسه، ص111.

5- نفسه، ص103.

6- نفسه، ص50.

صاغ **ابن المقفّع** في هذه الأمثلة نصائحه وإرشاداته على شكل أمثال وحكم أسندها إلى الأوّلين حتى يتجرّد من السّلطة الخطابيّة، واختار الأمثال والحكم، حتى ترسخ في ذاكرة النّاس لأنّها أسهل إلى الحفظ وأخيَرُ قوالبِ النّثرِ لتعليم النّـــاس فهي تخرج بمقاصدَ قائمةٍ على ثنائيّة (الفعل≠ التّرك) لِما لها من نفع أو ضرر على الفرد وعلى المجتمع.

وما نلاحظه في هذه الأمثلة ورودها مؤكّدة بأداة توكيد (إنّ) ويعود السّبب إلى أنّ هذه الأخبار أُلقيت على مخاطَب يفترضه ابن المقفّع مترددًا شاكًّا، وبمعنى آخر نَزَّل المخاطَب خاليَ الذِّهن منزلةَ المتردِّدِ الشّاكِ، فجاءت تلك الأمثلة مؤكّدة استحسانا، فالمقام الذي أنجز فيه ابن المقفّع كتابه استلزم ذلك التّأكيد، فكان يضع صوب عينية وجود متلقٍ متردّد شاك أو منكر وذلك للظّروف السّياسيّة السّائدة آنذاك.

2.1- معاني الطّلب:

تعدّدت معاني الطّلب في **الأدب الكبير** إلى أمر ونداء ونفي، يقول أبو هلال **«واعلم أنّ المعاني التي تنشأ الكتب فيها من الأمور والنّهي، سبيلُها أن تؤكّد غاية التّوكيد بجهة كيفية نظم الكلام، لا بجهة كثرة اللّفظ، لأنّ حكم ما ينفذ عن السّلطان في كتبه شبيهة بحكم توقيعاته من اختصار اللّفظ وتأكّد المعنى، هذا إذا كان الأمر والنّهي واقعين في جملة واحدة، ... وذلك مثل ما يُكتب عن السّلطان في أمر الأموال وجبايتها واستخراجها، وسبيلُ الكلام أن يقدم فيها ذكر ما رآه السّلطان في ذلك ودبّره، ثم يعقِّب بذكر الأمر بامتثاله ولا يقتصر على ذلك حتى يؤكّد ويكرّر لتأكيد الحجّة على المأمور به، ويحذِّر مع ذلك من الإخلال والتّقصير»**[1].

لقد انحصر الأمر والنّهي في **الأدب الكبير** وهذا الانحصار حدّد السّياق لذلك لم يكنِ الغرضُ الحقيقيُّ للأمر هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء والالتزام ويقصد

1- ابن وهب: **البرهان في وجود البيان**، المكتبة العلمية، د.ط، بيروت، 1980، ص19-20.

بالاِستعلاء «**أن ينظر الآمر لنفسه على أنّه أعلى منزلة ممّن يخاطبه، أو يوجِّه الأمر إليه، سواء أكان أعلى منزلةً منه في الواقع أم لا**»[1].

ولم يكن الغرض الحقيقيُّ للنّهي هو طلب الكفّ عن الفعل والاِمتناع عنه على وجه الاِستعلاء والإلزام، خاصّة ما كان موجَّها إلى السّلطان، أما ما كان إلى عامّة النّاس فقد نلمس فيه هذا الغرض لأنّ مرتبة اِبن المقفّع الاِجتماعية كأديب جعلته يرى نفسه أكثر كفاءة عن غيره من النّاس العاديّين.

إذن الغرض من الأمر هو اِتّفاقه مع سلطة المرسل، شرط ألاّ يتعارض مع سلطة أعلى من سلطته، ولذلك لو كان اِبن المقفّع صريحا في أمره فإنّ خطابه لن ينال القبول، ويكون الإخفاق في تنفيذ قصده وتحقيق هدفه هو النّتيجة الحتميّــة لأنّ خطابه يتعارض مع سلطة أقوى من سلطته وهي سلطة الحاكم.

وعندما تجري المعاني الأصليّة للطّلب في غير شروطها تخرج عن دلالتها إلى أغراض فرعيّة، ويتمّ هذا الاِنتقال عبر مرحلتين هما:

- اِختلاف مقام إجراء المعنى الأصلي عن مقامه المألوف، يؤدي إلى خرق في أحد شروط هذا المعنى.
- يؤدي خرق هذا الشّرط إلى تولّد معنى جديد يوافق المقام الجديد.

3.1- خروج الأمر والنّهي عن المعنى الأصليِّ:

يعرِّف البلاغيون الأمر أنّه «**صيغة تستدعي الفعل أو قولٌ يُبنى عن اِستدعاء الفعل من جهة الغير على جهة الاِستعلاء** »[2].

1- محمود سليمان ياقوت: **علم الجمال اللغوي (المعاني، البيان، البديع)**، ج1، د.ط، دار المعرفة الجامعيّة، 1995، ص424.

2- المرجع نفسه، ص242.

أمّا الصّياغة الثّانية التي اِستعملها اِبن المقفّع في خطاباته هي النّهي، ليكون المقام الجديد الذي يخرج إليه كلّ من الأمر والنّهي، ويوافق الأمر الجديد هو:

1.3.1- النّصح والإرشاد: جاءت معظم عبارات **الأدب الكبير** في هذا المعنى على شكل صيغ أمر قَصَدَ اِبنُ المقفّع من ورائها النّصح والإرشاد، لجأ لهذا الغرض لأنّه يخاطب نوعين من المخاطَب (السّلطان والرعيّة) وهو ليس أعلى منزلةً من المخاطَب، فهو متجرِّد من السّلطة الخطابيّة، فلا يحقّ له أن يصدر الأوامر، أو أن يلزم بها مخاطبيه، فموضوع الرِّسالة (الأمر والنّهي) وصاحبها (السّلطان) حالٌ تقتضي اِختصار اللّفظ وتأكيد المعنى، الحيلة والذّكاء والفطنة حتى يتمكّن من إقناع المخاطَب، حيث قيل لِابن المقفّع «**فإنّ مَلَّ السّامع الإطالة التي ذكرت أنّها حق ذلك الموقف، قال: إن أعطيت كلّ مقام حقّه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو، فإنّه لا يرضيهما شيء، أمّا الجاهل فلست منه وليس منك، ورضا جميع الناس شيء لا تناله**»[1].

ولم يختلف النّهي في ذلك عن الأمر، وهذا ما يشهد به المبرِّد فيقول: «**واِعلم أنّ الطّلب من النّهي بمنزلته من الأمر، يجري على لفظه كما يجري على لفظ الأمر**»[2].

وإن كان للأمر صيغة أصليّة، فإنّ النّهي له صيغة أصليّة يتلفّظ بها المرسل في خطابه، إذ «**للنّهي حرف واحد وهو لام الجازم في قولك: لا تفعل، والنّهي محذُوٌ به حذو الأمر في أنّ أصل اِستعمال: لا تفعل، أن يكون على سبيل الاِستعلاء**

1- ابن وهب: **البرهان في وجوه البيان**، ص37.

2- المبرّد: **المقتضب**، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، ج2، د.ط، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ص135.

بالشّرط المذكور صادف ذلك أفاد الوجوب، وإلاّ أفاد طلب التّرك فحسب...والأمر والنّهي حقُّهما الفورُ»[1].

ورد الأمر والنّهي في القسم الأول الخاص بالحاكم وفي القسم الثّاني الخاص بالأصدقاء، وقد يكون الأمر والنّهي مختلفين مع الأصدقاء، فلا يخرجان عن معناهما، وقد جاء الأمر والنّهي بهذه الصّياغة:

هذه الأمثلة هي صيغُ أمرٍ الغرضُ منها النّصح والإرشاد دون أن تخرج إلى الإخبار، يقول اِبن المقفّع:

- اِجعل الخصال الثّلاث منك بمكان ما لابدّ لك منه، واِجعل المال والذِّكر بمكان ما أنت واجد منه بدّا[2].
- اِعرف الفضلَ في أهل الدِّين والمروءةَ في كلِّ كَورة وقرية وقبيلة[3].
- اِحرص الحرص كلَّه على أن تكون خابرا أمور عمالك[4].
- عوِّد نفسك الصّبر على من خالفك من ذوي النّصيحة والتّجرّع لمرارة قولهم وعدلهم[5].

ركّز اِبن المقفّع على الأمور التي تتعلّق بإصلاح الحكم والحكماء، وتخدم المصلحة العامّة للبلاد وللرّعية، كما تناول شروط الحاكم الصّالح وقوانين الحكم وغيرها ثم أشار إلى أخلاق الحاكم وعلاقته بالرعيّة، جاء كلُّ ذلك على صيغة الأمر الذي غرضه النّصح والإرشاد، وهذا ما يتّفق مع مثل هذه الموضوعات التي تتناول الأخلاق، أمور الدِّين والدّنيا وغيرها.

1- السّكاكي: **مفتاح العلوم**، دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت، ص320.

2- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص18.

3- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

4- نفسه، ص20.

5- نفسه، ص20-21.

وكذلك كان الغرض من النّهي، فهو ينصح عن بعض الأمور ويرشد في أخرى، فمنها ما هو موجّه إلى السّلطان مباشرة، ومنها ما خصّ بها أصحاب السّلطان وأعوانه ووزراءه...وجميعُ هذه المعطيات تتعلّق بالحكم وشروطه وقوانينه والدّعوة إلى الأخلاق، ونجد من النّهي الموجّه إلى السّلطان:

- لا تمكِّن أهل البلاء الحسن عندك من التذلّل عليك، ولا تمكننّ من سواهم من الاِجتراء عليهم والعيبُ لهم[1].
- لا تتركنّ مباشرة جسيم أمرك فيعود شأنك صغيرا، ولا تلزمنّ نفسك مباشرة الصّغير، فيصير الكبير ضائعا[2].
- لا تكوننّ نزر الكلام والسّلام[3].
- لا تعاجل بالثّواب ولا بالعقاب[4].
- لا تسهلنّ سبيل ذلك إلاّ لأهل العقل والسِّنّ والمروءة[5].
- لا تقذفنّ في روعك أنّك إذا اِستشرت الرِّجال ظهر النّاس من الحاجة إلى رأي غيرك[6].
- لا يكوننّ طلبك ما عند الوالي بالمسألة[7].
- لا تقدر أمرك بينك وبينه على ما كنت تعرف من أخلاقه، فإنّ الأخلاق مستحيلة مع الملك[8].

1- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص19-20

2- المصدر نفسه، ص21.

3- نفسه، ص26.

4- نفسه، ص20.

5- نفسه، ص21.

6- نفسه، ص18.

7- نفسه، ص41.

8- نفسه، ص36.

- لا ترينّ أنّ سلطانه زادك له توقيرا وإجلالا[1].

تناول ابن المقفّع طبيعة العلاقة القائمة بين الراعي ورعيّته، فركّز كثيرا على الأخلاق، فبيّن لهم السلبيّة منها وغير المرغوب فيها، وكلّ ذلك بأسلوب رائع وبطريقة ذكيّة، لذلك نجده يبتعد عن الغريب بما لا يعرفون، وبما هم إلى تفسيره محتاجون، فكان لا يكلّم العامّة السّخفاء بما يكلّم به الخاصّة الحكماء، والغايةُ من هذه المراعاة هي الفهم والإفهام، يقول أبو هلال «**وإذا كان موضوع الكلام على الإفهام فالواجب أن تقسّم طبقات الكلام على طبقات النّاس فيخاطب السّوقي بكلام السّوقة والبدويّ بكلام البدو، ولا يتجاوز به عمّا يعرفه إلى ما لا يعرفه فتذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب**»[2].

وكان النّهي موجّها في القسم الثاني إلى الرعيّة، فيقول:

- لا يكوننّ من خلقك أن تبتدئ حديثا ثم تقطعه وتقول: "سوف" كأنّك روّأت فيه بعد ابتدائك إيّاه[3].
- لا تكثرنّ ادّعاء العلم في كلّ ما يعرض بينك وبين أصحابك، فإنّك من ذلك بين فضيحتين[4].
- لا تتّخذنّ اللّعن والشّتم على عدوّك سلاحا، فإنّه لا يجرح في نفس ولا منزلة ولا مال ولا دين[5].
- لا يعجبنّك العالم ما لم يكن عالما بمواضع ما يعلم ولا العامل إذا جهل موضع ما يعمل[6].

1- ابن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص36.
2- ابن وهب: **البرهان في وجود البيان**، ص9.
3- المصدر السابق، ص67.
4- نفسه، ص71.
5- نفسه، ص92.
6- نفسه، ص101.

- لا يعجبنّك إكرام من يكرمك لمنزلة أو لسلطان[1].
- لا تجالسنّ اِمرأ بغير طريقته[2].
- لا تلزمه لوما وعدلا بأن تقول: أنت فعلت هذا بي[3].
- لا ينفعك أن تخبر عدوّك وحاسدك أنّك له عدو[4].

هذه الأمثلة كلّها ورد فيها النّهي باِستعمال الحرف (لا) الذي يسبق الفعل المضارع، ويعدّ اِستعمال النّهي بهذه الصّياغة دليلا صريحا على أن يبلغ قصده التّوجيهيَّ إلى الراعي والرعيّة وأن يفهموا منه حرصه الشّديد على التّقيّد بهذه الوصايا، والمعروف أنّه يستعمل النّهي لتوجيه المخاطَب (لا تكثرنّ/ لا تجالسنّ/ لا تلزم...) والغائب (لا ينفعنّك/ ولا يجلبنّك/ لا يكوننّ...) وذلك عند اِستعمال حرف (لا) لأنّه «**يقع على فعل الشّاهد والغائب**»[5].

والملاحظ في هذه الأمثلة أنّ المرسل يستعمل مع (لا) النّاهية نون التّوكيد وهذا دليل على أنّ النّهي أعلى درجة في قوله مثلا: لا تجالس/ لا تلزم/ لا تقدر/ لا تعاجل...لأنّ فيه تأكيدا. والتّأكيدُ كان نتيجة لمعرفة المرسل بالمرسل إليه وبعناصر السِّياق جيِّدا.

وفي هذا، نجد أنّ النّهي طبقات، بناءً على السّياق وبمعرفة خصائص المرسل إليه من الضّعف والقوّة، وكذلك أهميّة الأمر المُنهَى عنه، ويمكن أن يُنظر إلى النّهي بوصفه درجات أو طبقات، إلاّ أنّه لو نظرنا إلى القصد، وجدنا أنّ الصّيغ متساوية في سياق النّهي، لأنّ قصد المرسل واحد، وهو الدّعوة إلى ما هو خير.

1- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص110

2- المصدر نفسه، ص114.

3- نفسه، ص118.

4- نفسه، ص89.

5- المبرِّد: **المقتضب**، ج2، ص134.

2.3.1- التّرغيب: يقول ابن المقفّع: «اُبذل لصديقك دمك ومالك ولمعرفتك رفدك ومحضرك وللعامة بشرك وتحنّك، ولعدّوك عدلك وإنصافك واِضنن بدينك وعرضك على كل أحد»[1].

- حبِّب إلى نفسك العلم حتّى تلزمه وتألفه، ويكون هو لهوك ولذّتك وسلوتك وبلغتك[2].

- عوِّد نفسك السّخاء[3].

- تعلّم حسن الاِستماع كما تتعلّم حسن الكلام[4].

وجميع هذا المعطيات كانت في الآداب الاِجتماعيّة وما يحتاج إليه النّاس في تعاملاتهم، وكذلك خرج النّهي عن معناه الأصليِّ ليفيد بذلك معنى التّرغيب أو ما يسمِّيه البلاغيون الإغراء.

- ألزم ذلك لزوم مَن لا غنى له عن طرفة عين[5].
- اِعرف الفضل في الدِّين والمروءة في كل كورة[6].
- عليك بالِتماس رضا الأخيار منهم وذوي العقل[7].
- عليك بجواب الحجّة في حلم ووقار[8].

ونجد ابن المقفّع حين يحبِّب أمرا يستعمل أفعالا مثل: اِلزم، اِعرف، حبِّب.... كما يستعمل بعض أسماء الأفعال مثل (عليك) وهو اِسم فعلِ أمرٍ بمعنى (اِلزم)، أو

1- ابن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص65.
2- المصدر نفسه، ص86.
3- نفسه، ص87.
4- نفسه، ص119.
5- نفسه، ص11.
6- نفسه، ص18.
7- نفسه، ص19.
8- نفسه، ص46.

يحذف الفعل، ليكشف عنه ضمن سياق الكلام مثل: الاِتِّئاد الاِتِّئاد أي اِلزم التّأني في كل أمورك، ولأهميّة هذا الأمر يشير إليه وذلك بتوكيده لفظيّا. كذلك حين يقول: التّثبّتَ التّثبّتَ أي: اِلزم التّأنِّي والفحص في أمورك

3.3.1- التّحذير: يعدّ أسلوب التّحذير من آليات التّوجيه، ويتّم ذلك من خلال اِستعمال أدوات معيّنة، وهذا ما يعتمده المرسل في بعض خطاباته، وله في هذا مآرب، كما أنّه يعطي خطابه قبولا من خلال حضور الصّراحة التي تُدلّ المرسل إليه على صدق المرسل في التّوجيه، «**ليصبح مرسلا ذا رأي**»[1] وبالتّالي تكسبه الثّقة في خطابه، يقول اِبن المقفّع:

- اِحترس من سورة الغضب وسورة الحميّة وسورة الحقد وسورة الجهل وأعدد لكلّ شيء من ذلك عدّة تجاهده بها من الحلم والتفكّر والرّويّة وذكر العاقبة وطلب الفضيلة[2].
- فأمّا الباطل فلا تروعنّ به قلبك ولا تستعدنّ له ولا تشتغلنّ بشيء من أمره[3].
- ولكن اِحذر أن يكون في مجالستك إيّاه[4].
- إيّاك أن تكافئ عداوة السِّرِّ بعداوة العلانيّة وعداوة الخاصّة بعداوة العامّة[5].
- اِحذر هذه وتصنّع لها[6].
- اِحذر المراء وأغرِ به[7].

1- محمد جهاد جميل، سمير روحي الفيصل: **مهارات الاِتِّصال في اللّغة العربيّة**، د.ط، دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات العربية المتّحدة، 2004، ص22.

2- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص83.

3- المصدر نفسه، ص96.

4- نفسه، ص83

5- نفسه، ص90.

6- نفسه، ص97.

7- نفسه، ص101.

- إيّاك أن تعرِّض بأحد في ما ضارعها[1].
- وعليه، فإنّه يكون إنجاز التّحذير بهذه الأساليب من باب أفعال النّصح الضّمني للمرسل إليه، ويتكوّن أسلوب التّحذير من ثلاثة عناصر هي:
  - المرسل (المحذِّر) الذي يوجِّه الخطاب.
  - المرسل إليه (المحذَّر).
  - المحذور (المحذَّر منه).

ويمكن تقسيم التّحذير إلى وجهتين، فالقسم الأول هو توجيه المرسل إليه بذكر (المحذَّر) والقسم الثاني هو توجيه بذكر المحذَّر منه، وإنّ لخطاب التّحذير صورا لغويّة عديدة وردت في خطاب **الأدب الكبير** لابن المقفّع وهي:

- صورة تقتصر على ذكر المحذَّر منه أي المكروه اِسما ظاهرا دون تكرار ولا عطف مثيل له (أي محذر آخر) يقول اِبن المقفّع في هذا النّوع: اِحذر أن يكون في مجالستك إيّاه.
- الصّورة الثّانية تشتمل على ذكر اِسم ظاهر مختوم بكاف خطاب للمحذَّر حيث يكون هذا الاِسم هو الموضع أو الشّيء الذي يُخاف عليه، سواء كان مكرّرا أو غير مكرّر، معطوفا عليه بالواو مثيل له، أي محذَّر آخر أم غير معطوف، ولابدّ في صورة العطف أن يكون المعطوف محذَّرا أيضا كالمعطوف عليه، يقول اِبن المقفّع: عوراتِك وإيّاك أن تعرِّض بأحد في ما ضارعها، بمعنى : اِعرف عوراتِك وإيّاك أحذِّر...

1- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص121.

- صورة ثالثة أين يُذكر المحذَّر منه اِسما ظاهرا إمّا مكرّرا وإمّا معطوفا عليه مثله بالواو دون غيرها، فيقول: اِحذر هذه الخصلة من نفسك وتعاهدها بجهدك، وقوله : المراءَ وأغرِ به بمعنى : اِحذر المراء وأغر به.

- وصورة رابعة تشتمل على ذكر المحذَّر ضميرا للمخاطب هو (إيّاك وفروعه) وبعده المحذَّر منه اِسما مسبوقا بالواو دون غيرها أو غير مسبوق بها، أو مجرورا بالحرف (من) ومن أمثلته: إيّاك من تكافئ عداوة السِّرّ بعداوة العلانيّة، إيّاك من التّعتّب.... ففي هذه الأمثلة جاء اللّفظ (إيّ) مضافا إلى ضمير المخاطَب المفرد مع عطف المحذَّر منه عليها.

قد يأتي أسلوب النّهي – وكما مرّ بنا سابقا – في درجتين من الصّراحة فالدّرجة الأولى والأقوى هي ذكر لفظ التّحذير صراحة، وأحيانا نجد أنّ المرسل لا يتلفّظ بالمحذّر منه إلاّ بعد اِستنفاذ سبل النّصح التّلميحيّة والتّصريحيّة، وبالرّغم من أنّ التّحذير من آليات التّوجيه، إلاّ أنّه من الأدوات ذات المرتبة الدّنيا في القوّة لأنّ المرسل يوجّه المرسل إليه لِما فيه منفعته هو دون منفعة المرسل و منفعة غيره، ولا يقصد اِبن المقفّع من وراء هذا التّحذير إلاّ التفطّن لما فيه غفلة.

وهكذا يكون الأمر أقرب إلى التّحذير من الوقوع في الخطأ على أن ينهاهم (مخاطبيه) على أشياء قاموا بها، أو هم على وشك القيام بها، وينبِّههم إلى سوء فهم أو سوء تفاعل، فالنّاصح يأمِّل تغيُّرا في الأمور مستقبلا، ولا يحاسب النّاس على ما فات، وبهذا يكون الأمر بصيغتيه (اِفعل/لتفعل) –التي هي لبّ الأمر عند البلاغين– والنّهي شكّلا في **الأدب الكبير** ظاهرتين بارزتين طغتا بذلك على خطاب اِبن المقفّع وهذا يتناسب مع السّياق.

لقد كان اِبن المقفّع ناصحا مرشدا مصلحا اِجتماعيا أكثر منه ملتزما بقضايا أدبيّة وبهذا «**فإنّ القول يصبح فعل شيء ما وعمله**»[1]، أمّا بقيّة الأغراض

1– أوستين: **نظرية أفعال الكلام العامّة**، ترجمة: قنيني، د.ط، إفريقيا الشّرق، 1990، ص111.

الإنشائيّة الأخرى من (تمنّ، اِستفهام، نداء...) لم يستعملها اِبن المقفّع إلاّ ما جاء منه بطريقة عفويّة، والسّبب أنّها لا تتناسب مع سياق الكلام.

وفي الأخير، يكون الأمر والنّهي من الآليات المتحكِّمة لاِستخراج مقاصد الخطاب والكشف عن أبعاده التّلميحية بتحديد مرجعياتها.

ونوضّح الأفعال الكلاميّة التي اِستعان بها اِبن المقفّع في المخطّط التّالي:

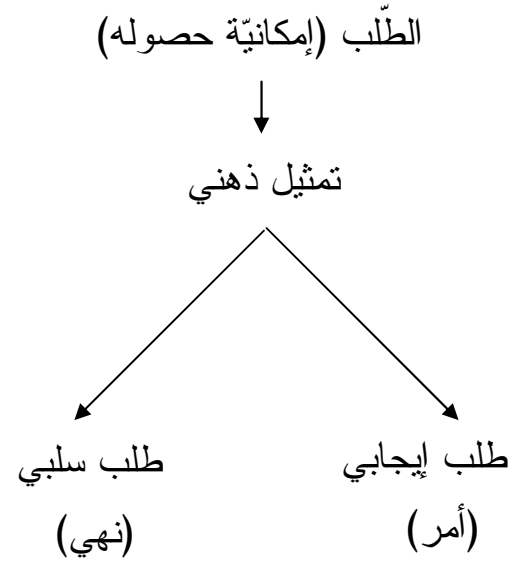

2- القرينة والإشارة:

يرى **لالاند** في "**موسوعته الفلسفيّة**" أنّ المقصد يتضمّن ثلاث خيارات «**...إمّا فكرة الفعل التي نفكّر بواسطتها بشيء ما وإمّا فكرة ملكتنا لمعرفته، وإمّا فكرة تعيينات هذا الموضع الفكريّ باِعتبارها سمات منطقيّة**»[1] ويتمّ تحديد القصد الذي تتضمّنه فكرة الفعل التي نفكّر بواسطتها بشيء ما عن طريق الكشف عن نظام الفهم الذي يتحكّم بالتفكير في موضوع ما، وعمّا يعيِّنه هذا الموضوع في ذهن

1- أندري لالاند: **موسوعة لالاند الفلسفيّة**، المجلد2، تعريب خليل أحمد خليل، ص692. عن: اِستراتيجيّة الخطاب لعبد الهادي بن ظافر الشّهري.

المفكّر، لتشكل الإشارات – والتي ستكون مرجعيّة– علاقاتٍ بين عناصر الكلام في الخطاب[1]، وتلك الإشارة الخطابيّة عند **مانغونو** وظيفتها تحديد المعطيات الزّمانيّة والمكانيّة المتضمّنة في فعل التّلفّظ ولكن في مستوى عالم المعنى المكّوّن من قبل التّشكيلة الخطابيّة[2].

وتظمّ الإشاريّة عند **أوركيوني** أنواعا من الإشارات أهّمها:

1.2-الضّمائر:

تلعب الضّمائر دورا بارزا في الرّبط بين متتاليات النّص عن طريق العلاقات التي تتبادلها بين أنواعها الثلاث (متكلّم – مخاطب – غائب) وفي هذا يقول "**شربل داغر**" «**الضّمائر تتّصل اِتِّصالا عضويّا بتركيب الجملة مع الاسم كما مع الفعل ونظرا للعلاقات التي تقيمها بين أجزاء القول، وهي العلاقات التي يقوم عليها جزئيّا أو كلّيا المعنى**»[3]، إذن لا يتحدد مرجعها إلاّ في سياق الخطاب لأنها خالية من أيّ معنى في ذاتها.

تطلّبت الدّراسة التّحليليّة على أن نحلّل خطابات اِبن المقفّع لتكشف عن الشّخوص، فلا تُدرك مقاصد النّص إذن إلاّ بالقراءة التّحليليّة هذه القراءة التي تعير الاِنتباه إلى المواضعات الفنّيّة التي صيغ لها النّص[4]. وذلك من خلال توظيف الضّمائر، فنجده يقول مثلا: أوصيك/ وأنا واعظك/ لا تقل/ لا يعجبنّك/ يهوون/ كتمتم/ الذين هم أعداؤك.... لهذه التّراكيب دور هام في توجيه النّص وإبراز أهميّته المشكّلة له، لذا نجد اِبن المقفّع يتلاعب بالضّمائـــر وينتقل من ضمير المتكلّم إلى

1 -Voir : Marie Noëlle Gary – Prieur : **Les termes clefs de la linguistique**, Seuil, Paris 1999, P21-22.
2 -Ibid, P29.

3- شربل داغر: **الشّعرية العربية الحديثة، تحليل نص**، ط1، دار توبقال، المغرب، 1988، ص68.

4- ينظر: أندري لالاند: **موسوعة لالاند الفلسفيّة**، المجلد 3، ص1273. عن: اِستراتيجيّات الخطاب لعبد الهادي بن ظافر الشّهري.

ضمير الغائب، ومن ضمير المفرد إلى ضمير الجماعة إلى درجة يتشتّت وعي القارئ أو المستمع، يقول اِبن المقفّع:

- اِعلم أنّ من العجب أن يبتلى الرّجل بالسّلطان، فيريد أن ينقبض من ساعات نصبه عليه، فيزيدها في ساعات دقته وفراغه وشهوته ونومه وعبثه[1].

- اِعلم أنّ قابل المدح كمادح نفسه، والمرء جدير أن يكون حبّه المدح هو الذي يحمله على ردّه[2].

- اِعلم أنّ مالك لا يغني النّاس كلّهم فاُخصص به أهل الحقّ، وأنّ كرامتك لا تطيق العامّة كلّها، فتوخَّ بها أهل الفضل، وأنّ قلبك لا يتّسع لكلِّ شيء ففرِّغه للمهمِّ[3].

- اِلبس لهؤلاء القوم الّذين هم أعداؤك سلاح الصِّحة والاِستقامة ولزوم المحجّة فيما تسرّ وتعلن.

ونجد أيضا: إنّا وجدنا النّاس قبلنا/ اِعرف الفضل/ أن تكون خابرا/ عوِّد نفسك الصّبر على من خالفك/ لمرارة قولهم وعدلهم...

اِستطاع اِبن المقفّع أن يفتح مجالا أوسع للقارئ للتّأويل والإحاطة بالمعنى الباطنيِّ لمقصديّته من خلال تنوّع هذه الضّمائر. ونجد معظم الصِّيغ التّركيبيّة لهذا الضّمير مشكّلة ضمن النّسق التّالي: فعل/ صفة وضمير المتكلِّم والكاف التي تعود على المخاطَب المفرد: وأنا واعظك/ ألا أخبرك/ يعجبنّك/ إيّاك (والتي بمعنى: أحذّر إيّاك)...، والتي تفيد الإخبار.

1- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص15.
2- المصدر نفسه، ص17.
3- نفسه، ص21.

ضمير الغائب: يعبِّر ابن المقفّع عن رفضه لهذا الوضع الذي يعاني منه المجتمع آنذاك، ونلتمس ذلك بإضافة طائفة تضاف إلى المتكلِّم والمخاطَب وهو ضمير الغائب الذي أطلق عليه "**بنفنست**" **Benviniste** (اللاّشخص) حيث يقع "**هو**" تحت كلٍّ من (أنا) (أنت)، كما يقع تحت كلِّ ما من شأنه أن يصبح موضوعا للكلام.

وتُحيلُ المؤشِّرات التّركيبيّة التّالية: الذين هم أعداؤك/ على من خالفك/ ألا أخبرك عن أناس كانوا/ عاشوا... إلى الغائب بصيغة الجمع وهم (الأجداد)، أمّا المخاطِب وهو ابن المقفّع الكاتب نفسه، والمخاطَب هو المتلقِّي وهذا إشارة إلى رفض ابن المقفّع للظّروف السّائدة آنذاك، وهذا يناسب الملامح الضّمنيّة التّالية: أعداؤك/ لا يعجبنّك/ أخبرك/ أوصيك/ احذر/ اعلم/ توخّ/ أترك/ إيّاك/ ابتليت.

تعمّ الظّاهرة الغيبيّة خطابات ابن المقفّع، حيث تضاربت علاقة الطّرفين (المتلقِّي المقصود) و(المفترَض) وكذا الواقع (المرفوض) و(المثاليّ) هذه كلُّها إشارة إلى روح ابن المقفّع الصّادقة التي تؤمن بالخير وبرغبة في التّغيير، وهي عند ابن المقفّع كتاباته التي تعتبر إشارات لهذا العالم المثاليِّ الذي يريده ومنها: **الأدب الكبير/ رسالة الصّحابة/ الأدب الصّغير**...

استنادا إلى تصنيف **أوركيوني** في حضور المتلقِّي وكيف يتفاعل تقول «**أنّ المتلقي غائب لا يتحدّث في معظم تواصلاته الكتابيّة**»[1].

فالكلام يحمل طاقة من الإفصاح في التّعبير، يمارسها ابن المقفّع من أجل تغيير أمر معيّن أو فكر سائد. فاستغلّ ابن المقفّع ثقافته المعرفيّة وتمكّنه اللّغويّ لصالحه للتّعبير عن عالمه المثاليِّ الذي يريده. ومن هذه التّعبيرات:

1 - C. K.Orecchioni, **L'énonciation de la subjectivité dans le langage**, 2eme édition, Armand Collin, Paris, 1980, P23.

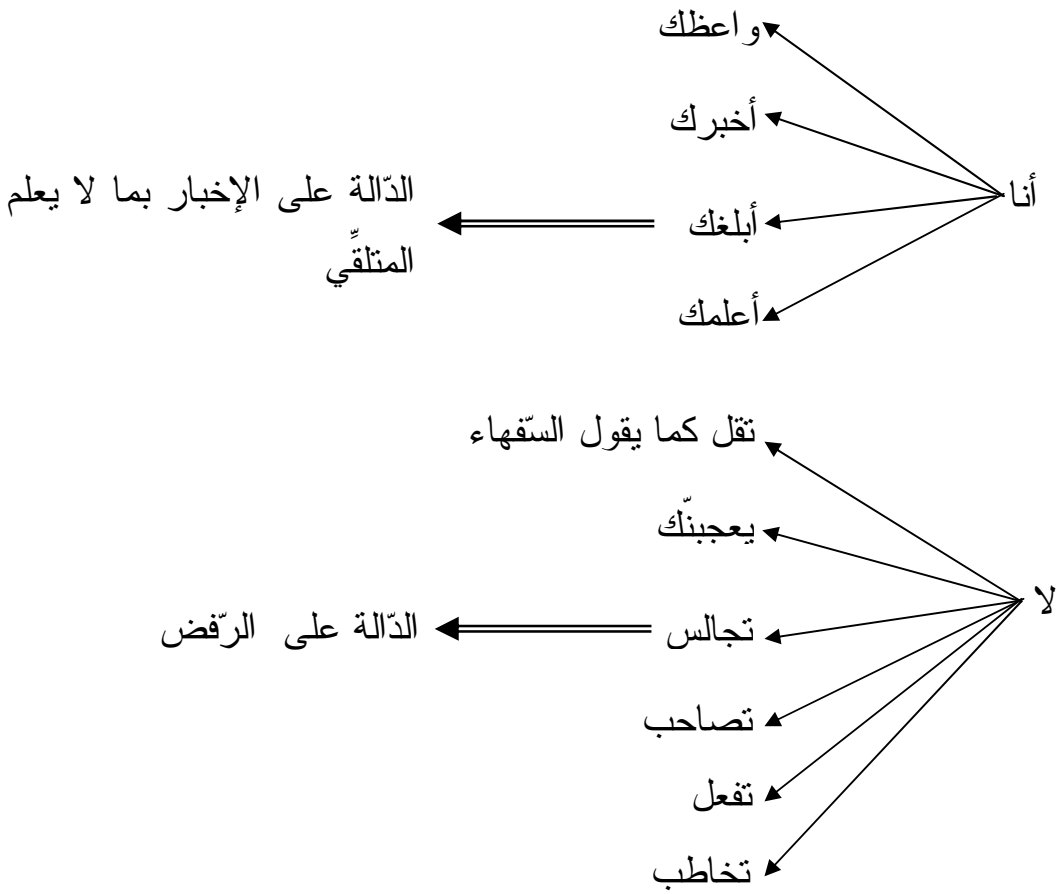

2.2.الحروف:

اِتّخذ اِبن المقفّع من الحروف (عليك، لام الأمر، لا النّاهية، فاء السّببيّة ...) مرجعا يستدلّ بها عن موقفه، حيث تكرّرت في خطاباته: عليك بالحذر/ عليك بالجديّة/ فينقلبَ عليك/ ليكن ما تريده/ لا تفعل ذلك.... فكانت في بداية الخطاب وهي تكشف عن علاقات جديدة، وبالتّالي تفتح أمام القارئ عالما من المطابقات أكثر أمنًا.

تنوّعت العبارات التي تدعو إلى الإصلاح، وندركها من الأمر والنّهي والتّحذير....ممّا يجعل حركيّة وسيرورة البنية الدّالة على الوعظ والإرشاد وكذا الإصلاح في الدِّين والدّنيا.

أسبغ ابن المقفّع خطابه أسلوبا ينهض على التّغيير والرّفض، وهو الأسلوب القصصي لما فيه من متعة السّرد، فكثر بذلك الفعل الماضي النّاقص (كان) الذي يشير إلى هذا النّوع من الأسلوب.

كما تنوّعت المؤشرات اللّفظيّة، فاختلفت مثلا في كلامه عن الوالي أو الحاكم فهو يخصّ الحاكم بالحديث تارة باسم الوالي، أو السّلطان تارة أخرى، أو يذكره في صيغة الغائب، فيسند إليه السّلطة، كما يستخدم في السّياق ما يعبّر عن سلطانه بمؤهّلات فكريّة، دينيّة، خلقيّة، وواجباته تجاه المحكوم من خاصّة النّاس وعامّتهم.

نجد ابن المقفّع يستعمل مصطلحات كثيرة لها دلالة مع السّلطان، الوالي الرعيّة، العلم، الإصلاح...

- **السّلطان:** الراعي الأوّل/ الحاكم/ صاحب القوّة/ صاحب العلم/ العالم/ المدرك لأمور الدّين والدّنيا/ العادل/ المؤمن....
- **الحاكم:** الوالي/ الخاصّة/ الوزير/ صاحب الولاية/ من يرخص به السّلطان/ الحرّ/ الرّزين/ الأمين/ صاحب العدل/ المخلص/ الوزير.
- **الرعيّة:** النّاس/ الصّديق/ مجلس النّاس/ الأمن/ الرّضا للسّلطان/ الاستقرار/ الاطمئنان/ الرّجال/ الحاجة/ العامة/ السّوقة.
- **العلم:** العلماء/ الأخبار/ صاحب دين/ صاحب عقيدة/ أدب/ كتب/ الإتقان/ البلاغة/ العقل/ الأولى/ الآخرة/ الحكمة/ الفطنة/ الآثار/ الزّهد....

يعود هذا كلُّه إلى امتلاك ابن المقفّع للّغة المناسبة القائمة على نسق وبنية ترابطيّة تحيل إلى دلالات عميقة تُدرَك من خلال السّياق. يقول أبو الحسن البصري «**إنّما يضطّر السّامع إلى قصد المتكلّم لِما يقترن بكلامه من إشارات**»[1] وضمن هذه الظّروف كلِّها يتلاعب ابن المقفّع من خلال اللّغة والحجّة والحيلة.

1- عبد السّلام المسدي: **التّفكير اللساني في الحضارة العربيّة**، د.ط، الدار العربية للكتاب، تونس،1981، ص147.

3- قصد الإقناع وآلياته:

تفترض العمليّة التّواصليّة نظريّة اِستدلاليّة ومقاربة جديدة للتّعبير عن رؤى الفكر وإدراك مقاصده، ولمّا كانت العمليّة التّخاطبيّة ترتكز على النّموذج التّبليغيِّ والتّفاعليِّ وجب ضرورة الاِستعانة بصور وأساليب اِستدلاليّة حجاجيّة[1].

ولذلك يلجأ المخاطِب في خطاباته إلى الحجاج من أجل الإقناع وذلك باِستعمال وسائل قصد خلق الإعجاب والتّثقيف والتّأثير، وهذا ما آل إليه اِبن المقفّع فقدّم من خلال **الأدب الكبير** -وقدرا عن قانون الإخباريّة- المعلوماتِ الثريّةَ والمناسبةَ بالشّواهد والحجج التي تكتسب قوّتها من مصدرها وتواترها بين النّاس وتجعل المخاطَب ينحصر في اِختيارها وتوجيهها نحو الغرض الذي يرجوه، لقد أتى اِبن المقفّع بجميع المعلومات والأخبار ليجعل القارئ يقوم باِستنتاجاته.

لقد تعمّد تمرير خطابه إلى السّلطة وإلى نظام الحكم، فلجأ إلى الإقناع والحجّة. فالحجّة في تعريف القدماء هي البرهان، وقيل: «**الحجّة: ما دفع به الخصم وقال الأزهري: الحجّة الوجه الذي يكون الظّفر عند الخصومة، والحجاج التخاصم وجمع حجّة: حجج وحجاج، وحاجّه محاجة، ونازعه الحجّة، وحجّه يحجّه حجّا: غلبه على حجّة له، وفي الحديث : "فحجّ آدمُ موسى" أي: غلبه على حجّته، واِحتجّ بالشّيء: أي اِتّخذه حجّة. قال الأزهري: إنّما سميت حجّة لأنّها تحجّ أي تقصد، لأنّ القصد لها وإليها...والحجّة البرهان**»[2].

أمّا عند المحدثين، فتهدف إلى إثبات قضيّة أو نقض قضيّة، تُحدَّد الحجّة دائما فتسمىّ الحجج المعاكسة (contre argument) كنتيجة تحدِّد نتيجة معاكسة ويتحدَّد

1- ينظر: طه عبد الرحمن: **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، المركز الثقافي العربي، ط2، المغرب، 2000، ص51.

2- اِبن منظور: **لسان العرب**، المجلّد الثاني، د.ط، دار صادر، لبنان، 1994، ص288.

الخطاب الحجاجيُّ كفرضيّة بداية مهمّة، ويتموقع دائما في علاقة مع خطاب معاكس حقيقي (أو مضمر)[1].

إنّ الشّيء الأول الذي يعتبر وسيلة للإقناع في **الأدب الكبير** هو الطّابع القصديّ، فابن المقفّع قَصَدَ تمرير خطابه إلى المتلقِّي سواء بطريقة مباشرة أو بطريقة ضمنيّة، فلّما يقول: «**وإنّي مخبرك عن صاحب لي كان أعظم النّاس في عيني، وكان رأس ما أعظمه في عيني صغر الدّنيا في عينه، كان خارجا من سلطان بطنه...فلا يقول ما لا يعلم، ولا ينازع فيما يعلم، وكان خارجا من سلطان الجهالة ... واعلم أنّ خير طبقات أهل الدّنيا أصفها لك: من لم ترتفع عن الوضيع ولم تتّضع عن الرّفيع**»[2].

إنّ هذه الأفكار في هذا الخطاب واضحة ومرتّبة ترتيبا منطقيّا، بدأها ابن المقفّع بقاعدة أساسيّة وهي: توطين النّفس على التّمسك بالصّديق، ومادام كذلك فلا بدّ من التمهّل في اختياره، وذلك يكون من حسن التّدبير، ثمّ وَضَع لذلك مقاييس: فإن كان من أهل الدّين فليكن فقيها، وإن كان ممّن يطلب الدّنيا فليكن حرّا ليس جاهلً ولا كذّابًا ولا شريرًا، وهنا يعلن عن قصديّة وهي الشّروط التي تتواجب حين اختيار الصّديق.

وأخيرا، يضع نتيجة وهي أنّ الصّداقة ضروريّة، وليكن في إطار الانتقاء لأنّ العزلة عن النّاس تجلب عداوتهم، والاندماج فيهم يوقع في أصدقاء السّوء.

1- ينظر: كميلة واتيكي: **كتاب الإمتناع المؤانسة لأبي حيّان التوحيدي، بين سلطة الخطاب وقصدية الكتابة**، رسالة ماجستير، جامعة تيزي-وزو، 2000-2001، ص276.

2- ابن المقفع: **الأدب الكبير**، ص124-125.

اِعتمد اِبن المقفّع في اِستراتيجيّته الخطابيّة على مسار حجاجيٍّ اِستــدلاليٍّ بدأ بالإخبار فتقديم المعطيات وهي بمثابة حجج، ليعلن بعد ذلك على نتيجة، ويمكن توضيح ذلك ضمن المخطّط التّالي[1]:

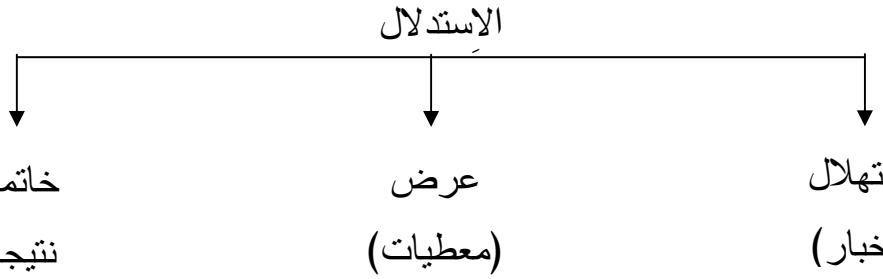

هذا المسار إقرار منه بقصديّة ما يكتبه، وبقصديّة مخاطبة الراعي والرعيّة وكلٌّ حسب السِّياق، فخطابُ اِبنِ المقفّع مقاميٌّ إذ ينبني على خصوصيّة المتلقِّي بمختلف جوانبه العقليّة والنّفسيّة وما يحيا فيه من مقام اِجتماعيٍّ وثقافيٍّ لذلك كان على المخاطِب «**معرفة الإنسان وشؤون الاِجتماع والسِّياسة**»[2].

كما أنّ لأفعال الكلام دورا هامّا في التّأثير على المتلقِّي وإقناعه، ونخصّ بالذّكر تلك التي تداخل فيها الإنشاء مع الخبر، يقول اِبن المقفّع «**اِعلم أنّ قابل المدح كمادح نفسه، والمرء جدير أن يكون حبّه المدح هو الذي يحمله على ردّه فإنّ الرّاد له محمود، والقابل له معيب**»[3] وهذا الخطاب في مدح السّلطان، فمن يقبل المدح أو ينشده كمن يمدح نفسه، فيرضى بالاِنتهازيّين ممّن ماتت ضمائرهم من دون أن يمنع ذلك الحاكم من اِلتماس رضا الشُّرفاء والنّزهاء الأخيار، وفرضُ هؤلاء دليلٌ على حسن عمله. فيقول له "**ما حاجتك إلى رضا من رضاه الجور وإلى موافقة من**

1- محمد العمري: **في بلاغة الخطاب الإقناعي**، ص129.

2- المرجع نفسه، ص32.

3- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص17.

موافقته الضّلالة والجهالة، فعليك بِالتماس رضا الأخيار، وذوي العقل " ممّا يقتضي للحاكم نفسه مستوًى من الحكمة ورجاحة العقل "**عوِّد نفسك الصّبر على من خالفك من ذوي النّصيحة والتّجرّع لمرارة قولهم وعدلهم، ولا تسهلنّ سبيل ذلك إلاّ لأهل العقل والسنّ والمروءة** " ومن هنا تكبر مهام الحاكم فيصير أمر خيره ونفعه للرعيّة أكيدا بصدق عمله.

هذه السّيرورة الدّلاليّة تكشف على تنبيه وإعلان اِبن المقفّع إلى المخاطر القادمة أو المحدقة بالأمّة والدّولة عبر شيوع الآفات الاِجتماعيّة وفساد الحكم والحاكم. فكانت الدّعوة للحاكم للسّهر على الرّعية وحسن التقرّب منها، والحرص على تولية ذوي الصّلاح والجدّية، والإخلاص عليها والإيثار لها والعمل برأيها العام لدرء الفساد والمفاسد، وإقامة العدل وتنفيذ الأحكام الشّرعيّة بالّتي هي أقوم في اللّيِّن وفي القوّة حسب مقتضى الحال.

اِجتهد اِبن المقفّع في رؤيته إلى المجتمع المثاليِّ، وذلك عبر منطقه الاِستدلالي العقلانيِّ، ونوضِّح فكره هذا ضمن السّلالم الحجاجيّة التّالية:

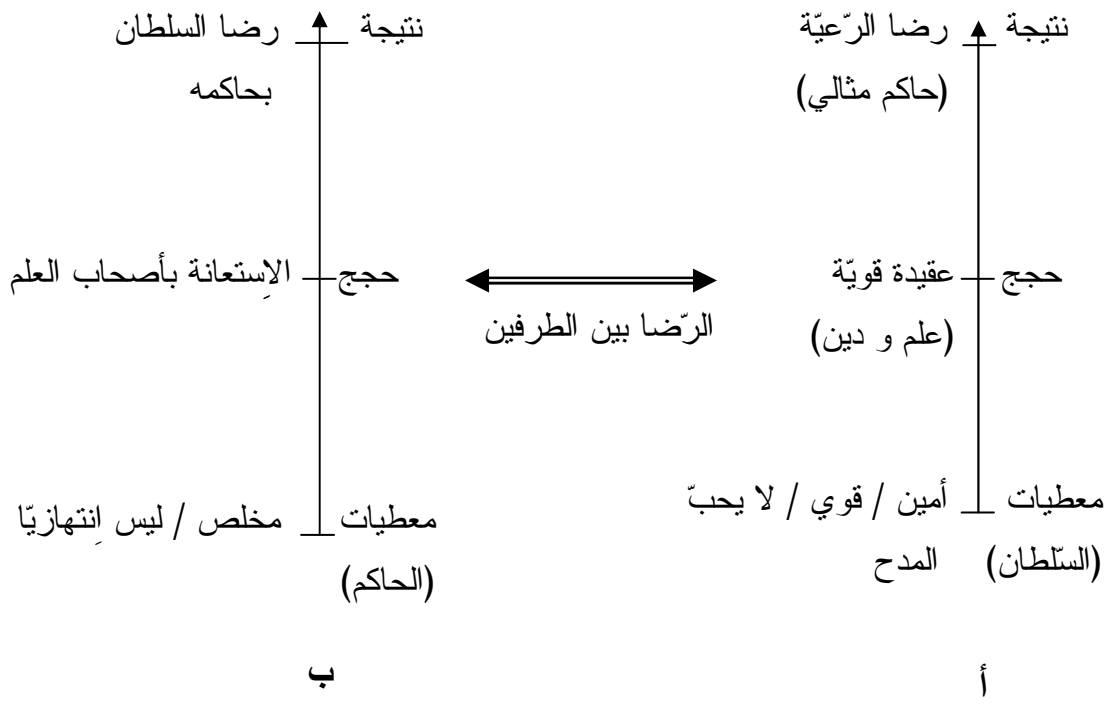

وإن بلغ الرِّضا الطّرفين، تطمئنّ الرعيّة في ظلّ حاكم مثاليّ ووالٍ عادل وبذلك يُفشى السّلام والأمن في مجتمع صالح. نكشف من خلال هذا المسار الاِستدلالي أنّ «**عمليّة الفهم لا تفارق عمليّة الاِستدلال**»[1].

إنّ اِبن المقفّع في أقواله يُحمِل المخاطَب على التّساؤل فيما يخصّ تصرّفاته حتى يحسِّنها لكن عن اِقتناع فكأنّه يسألهم وينتظر منهم إجابة، هذه الإجابة تجعلهم يعترفون بأمرين: التّحلِّي أو التّخلِّي ويمكن توضيح هذا المسار الاِستدلاليّ في المخطّط التّالي:[2]

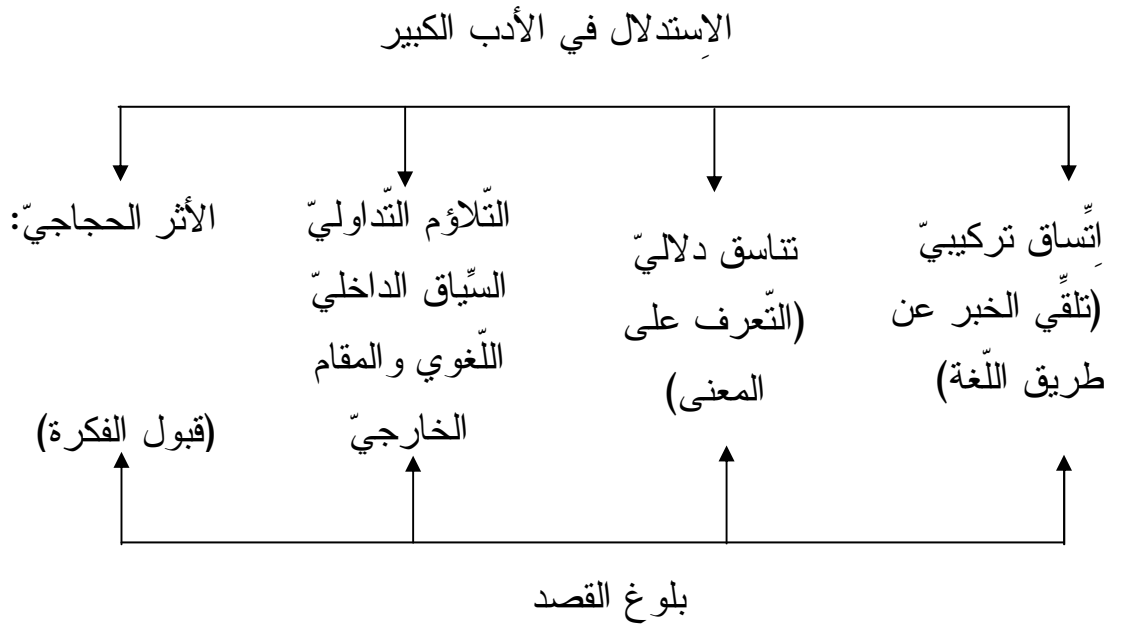

1- Sperber D. et Wilson D.: **La pertinence, communication et cognition**, Paris, Edition de Minuit, 1989, P111.

2- عبد السلام عشير: **عندما نتواصل نغيّر – مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج**، إفريقيا الشرق، د.ط، المغرب، 2004، ص73.

1.3-حجّة المثل:

إنّ الشّيء الذي عزّز هذا الإقناع هو صياغة كلام اِبن المقفّع على شكل أمثال وحكم وعبر، هذه الأمثال والحكم تُنسب إلى الأوّلين ممّا يدلّ على تواترها وتداولها بين النّاس، ونِسبتُه إيّاها إلى غيره إلاّ ليتجرّد من السّلطة الخطابيّة، وحتى يجعلها حجّة له وحجّة لمخاطبيه، فجاء معظم كلامه بهذه الطّريقة ممّا يدلّ على أنّه يقصد الإقناع، ولذا تقوم اللّغة في الخطاب الحجاجيِّ بدور جوهريٍّ وفاعلٍ في تحقيق التّأثير والاِستمالة، فالمفردات والتّراكيب التي يختارها المتكلِّم لوصف حدث ما تعكس موقفه تجاه ذلك الحدث من جهة، وتضع ذلك الحدث في نسق تصوّريٍّ بعينه يؤثر في تحديد الموقف الذي يتّخذه المتلقِّي تجاه ذلك الحدث من جهة ثانية[1]. ولمّا كان اِبن المقفّع ينتظر من مخاطبيه إجابة. فقد اِختار لخطابه القالب الأدبيَّ، فعَرَضَ أقواله على شكل أمثال وحكم، فقال:

- إنّ الاِستطالة تهدِّم الصّنيعة وتكدِّر المعروف[2].
- إنّ الحسد خلق لئيم[3].
- إنّ صيانة القول خير من سوء وضعه[4].
- إنّ كلمة واحدة من الصّواب تصيب موضعها خير من مئة كلمة تقولها في غير فرصها ومواضيعها[5].

1- ينظر: جميل عبد المجيد: **البلاغة والاِتِّصال**، د.ط، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص118.

2- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص83.

3- المصدر نفسه، ص88.

4- نفسه، ص51.

5- نفسه، الصفحة نفسها.

2.3- الحجّة الصّناعيّة:

يركّز ابن المقفّع في لجوئه لهذا المبدأ على ميزة الصّدق التي تتجلّى في خطاباته فاستدلّ بأقوال الحكماء « **فالإنسان المتحدّث لا يقول إلاّ ما يراه صحيحا ولا يأمر إلاّ بما يريد تحقيقه ولا يسأل إلاّ عن الشّيء الذي يريد معرفته**»[1]، يقول ابن المقفّع: "**فمنتهى علم عالمنا في هذا الزّمان أن يأخذ من علمهم وغاية إحسان محسننا أن يقتدي بسيرتهم ... فمن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها النّاس**" يُصرّ "**جرايس**" **Grice** على المشاركة الصّادقة في الخطاب، وذلك بقول الحقيقة كما هي موجودة في الواقع، وكما يعتقدها المتكلّم في إدراكه للواقع، لذلك نجد كلاّ من **جرايس Grice ومور Moore** يريان أنّه «**من السّهولة إذن قول الحقيقة على أن نكذب**»[2] وإن اُعتبر الكذب أصعب شيء في عمليّة التّخاطب، تقول **أوركيوني** «**لا يمكننا تصوّر لغة على خلاف هذه القاعدة**»[3] إنّه يبقى على السّياق الكشف على ميزة الصّدق، وتبيان ذلك عن طريق أفعال دالّة على التّوكيد، الإقرار، الإثبات، القسم وهذا ما يراه **مانغونو Maingueneau** «**أنّ قانون الصّدق لا يحتاج إلى علامة تدلّ عليه من حيث التّعابير أو الأساليب كاستعمال "حقيقة " أو "صراحة " وهذا ما يجعل القارئ يحسّ أنّه ثمّة كذبا يختبىء وراء هذه الكلمات**»[4].

نلتمس هذا الصّدق في كلام ابن المقفّع وحين يسنده إلى غيره وذلك من باب الأمانة العلميّة والتّجرّد من السّلطة الخطابيّة فهو حجّة بالنّسبة له وحجّة بالنّسبة للقارئ، وهذا يُعدّ «**من حسن التّدبّر والتقاط المناسبة بين الحجّة وسياق الحجاج في صورتها المثلى حتى يسدّ المتكلّم السّبيل على السّامع فلا يجد منفذا إلى**

1 - Maingueneau : **Pragmatique pour le discours littéraire,** P105.
2 - Ibid., P105
3 - C . K. Orecchioni : **L'implicite,** P204.
4 - Voir : Maingueneau: Op.cit**,** P106.

اِستضعاف الحجّة والخروج عن دائرة فعلها»[1] يقول اِبن المقفّع "**اِحفظ قول الحكيم الذي قال: لتكن غايتك فيما بينك وبين عدوّك العدل، وفيما بينك وبين صديقك الرّضا، فإنّ العدو خصم تقرعه بالحجّة وتغلبه بالحكّام، وأنّ الصّديق ليس بينك وبينه قاض، فإنّما حكمه رضاه**".

المقولة إحالة لأصحابها، فهو يسندها للأوّلين، فمن المفترض أن يكون صادقا في كلامه لِما يحمله من آداب في المعاملات.

إنّ الكلام المقنّع هو الذي يثريه صاحبه بالشّرح والتّعليل والتّفصيل وإيضاح الإبهام، حتّى وإن لجأ في ذلك إلى التّأويل، وهذا ما يسمّيه علماء البلاغة بالمعقود والمحلول «**هو أنّك إذا اِبتدأت مخاطبة، ثم لم تنته إلى موضع التّخلّص مما عقّدت عليه كلامك سُمي الكلام معقودا، وإذا شرحت المستور، وأنبت عن الغرض المنزوع إليه سُمي الكلام محلولا** »[2] نجد الكلام في **الأدب الكبير** لا يخلو من أيّ أمر من هذه الأمور، فقد شرح اِبن المقفّع وعلّل وأوضح وبيّن كلَّ ما يبدو له غير واضح أو مبهما، فكان يرتّب أفكاره في تسلسل منطقيٍّ، وكان في كلّ مرة يبدأ بالتّحذير من أمر، أو ينبّه عن شيء آخر غاب عن ذهن المخاطَب، أو يحثّ على أمور أخرى، ثم يقدّم المبرّراتِ التي تجعله ينهى عن ذلك الأمر أو يرشده إليه وبعد ذلك يؤكّد على فوائده أو إيجابياته، وتلك هي الإستراتيجية التي آل إليها اِبن المقفّع حين الاِستدلال.

كما نجد اِبن المقفّع يوضّح الفكرة ويشرحها حتى يبلغ مرحلة الإطناب يقول اِبن المقفّع «**عوِّد نسفك السّخاء، واِعلم أنّه سخاءان: سخاوة نفس الرّجل بما في يديه، وسخاوته عمّا في أيدي النّاس، وسخاوة نفس الرّجل بما في يديه أكثرهما**

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري: **اِستراتيجيات الخطاب**، ص457.

2- أبو هلال العسكري: **الصناعتين- الكتابة والشعر**، تح: محمد البجاوي، محمد أبو الفصل إبراهيم، المكتبة العربية، د.ط، صيدا، بيروت، د.ت، ص462.

وأقربهما من أن تدخل فيه المفاخرة، وتركه ما في أيدي النّاس أمحضُ في التّكرّم وأبرأ من الدّنس وأنزه، فإن هو جمعهما فبذل وعفّ فقد اِستكمل الجود والكرم»[1].

يفترض اِبن المقفّع وجوده أمام متلقٍ بطيء الفهم، ولعلّ الفكرة لم تصله بعد ولهذا نجده يفصّل ويشرح، ويحاول توضيح الأمور الغامضة والوصول إلى الغرض المنزوع إليه، حتى يصل إلى مرحلة الإطناب في بعض الأحيان وذلك ليتمكّن المتلقي من الفهم الجيّد للأفكار «**فالأديب الكاتب لا يعرف في معظم الأحيان شيئا عن متلقّيه المفترضين، أو أنّ ما يعرفه عنهم ضئيل نسبيّا، كما أنّه يجهل كلّ الجهل المقام الذي سيتلقّون فيه خطابه، وهذه أمور تنعكس على الخطاب نفسه، إذ يلجأ إلى الإطناب، ومن ثمّ بهدف التّيقّن من نجاعة التّواصل، يميل الكاتب إلى قول نفس الشّيء بطرق عدّة**»[2] ونلمس هذا الأمر في **الأدب الكبير** يقول اِبن المقفّع عن الغضب «**اِعلم أنّ من النّاس ناسا كثيرا يبلغ من أحدهم الغضب، إذا غضب أن يحمله ذلك على الكلوح والقطوب في وجه غير من أغضبه وسوء اللّفظ لمن لا ذنب له، والعقوبةُ لمن لم يكن يهمّ بمعاقبته، وشدّة المعاقبة باللّسان واليد لمن لم يكن يريد به إلاّ دون ذلك**»[3].

ويقول أيضا « **فإنّه ليس أحد أسوأ فيه حالا من أهل السّلطان الذين يفرطون باِقتدارهم في غضبهم** »[4].

كما يقول: **ليس للملك أن يغضب لأنّ القدرة من وراء حاجته**[5] ويقول: **اِحترس من سورة الغضب**[6] ركّز اِبن المقفّع في خطاباته هذه على الغضـــب

1- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص87.
2- كميلة واتيكي: **كتاب الإمتناع والمؤانسة**، ص257.
3- المصدر السّابق، ص22.
4- نفسه، ص23.
5- نفسه، ص27.
6- نفسه، ص83.

وأطنب في الحديث عنه فهو قضيّة مهمّة، تعمل على إفساد سلوك الفرد، لذلك نجده يعيد الكلام عنه بشدّة وبطرق عدّة. فقد دعا إلى تجنّبه خاصّة السّلطان لما له من مفسدة.

إنّ هذا الإقناع كلُّه لا يقتصر على المخاطَب المعاصر له آنذاك بل – ولربّما – يشمل القارئ الآخر المتعدِّد بتعدّد الأمكنة والأزمنة، وهذا ما جعل الكتاب أثرا أدبيّا لخصائصه الفنيّة ومضامينه الحكميّةِ التي اِحتواها، فهو يحمل قيما إنسانيةً خاليةً من أيّة إيديولوجيّة، ليكون بذلك مصدرا للتّواصل الفكريِّ والتّلقين المعرفيِّ وتداوله واِستمراره لحدِّ الآن. فتلك القيمُ التي تناولها **الأدب الكبير** خلّدته على مرِّ العصور والأزمنة، لقد حاول اِبن المقفّع أن يوفِّق بين الفكر الفارسيِّ الذي يكتب عنه والفكر العربيِّ الذي يكتب له فأعطى لأدبه مسحةً عربيّةً إسلاميّةً.

3.3-الرّوابط الحجاجيّة:

سعى اِبن المقفّع في خطابه إلى إقناع المتلقِّي بشتّى الوسائل معتمدا أسلوبا حجاجيّا، والذي أراده أن يكون منطقيّا، فسعى في كلامه إلى العرض والشرح، ممّا جعله قويّا في معانيه، قويّا في صوره ومبناه، ولعلّ ما جعله يتميّز بهذه الميزة اِستعماله للمؤكِّدات الخبريّة، والتي يسمّيها "**ديكرو**" الرّوابط الحجاجيّة (Connecteurs argumentatifs) ويقصد بها الرّبط أو الوصل، وهي الوحدات اللّغويّة أو المورفيمات التي تقيم علاقة بين جملتين، سواء تعلّق الأمر بالظّروف (مع، ذلك، رغم...) أو العطف (الواو، الفاء...) أو الإتباع بالصِّلة (لأنّ، بمأنّ، غير أنّ....)[1] ويعتبر اِستعمال هذه الرّوابط في الخطاب من الأشياء المهمّة كونها تؤدِّي دورا ذا بال من

1- ينظر: دومنيك مانغونو: **المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب**، ترجمة: محمدّ يحياتن، ط1، منشورات الاِختلاف، الجزائر، 2005، ص24.

حيث أنّها تضفي على النّص الاِتّساق وربط أجزائه بالمعنى، فهي «**علامات تتدخّل على مستوى الوصف الدّلاليِّ للّغة الطّبيعيّة**»[1].

تنوّعت هذه الرّوابط، فكان التّوكيد **بأنّ/ إنّ** الأكثر وُرودًا لِما لها من فائدة بلاغيّة في « **توكيد مضمون الحكم وتقريره** »[2].

يقول اِبن المقفّع: اِعلم أنّ مالك لا يغني النّاس كلّهم ...و أنّ كرامتك لا تطيق العامّة كلَّها...وأنّ قلبك لا يتّسع لكلِّ شيء... كما يقول: إنّا وجدنا النّاس قبلنا.../ إنّ صيانة القول خير من سوء وضعه / إنّ الصّبر عليها هو الذي يخفِّفها عنك... هذه الصّياغة التّعبيريّة ينتج عنها إقناع السّامع وبالتّالي تغيير نمط فكره، والاِعتقاد بما يعتقده المتكلِّم.

كما نجد نون التّوكيد الخفيفة والثّقيلة و(قد) التي تدخل على الفعل الماضي لتفيد التّحقيق. والملاحظ أنّ هذه الرّوابط تعمل على الرّبط بين قولين أو حجّتين أو أكثر، وتسند لكل قول وظيفة معيّنة داخل الاِستراتيجية الحجاجيّة العامّة. يقول اِبن المقفّع:

- ليس للملك أن يغضب، لأنّ القدرة من وراء حاجته.
- مع أنّ القوّة من الزّينة، والزّينة من القوّة، ولكنّ الأمر ينسب إلى معظمه وأصله.

إنّ القيمة الدّلاليّة لا تكمل في الرّابط، لكنّها كامنة في العلاقات التي تربطه بملفوظات أخرى تعمل على جعله مقبولا[3].

1- عبد السلام عشير: **عندما نواصل نغيِّر**، ص82.

2- عبد الله شريفي، زبير دراقي: **الإحاطة في علوم البلاغة**، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون، الجزائر، 2004، ص24.

3 - Voir D.Maingueneau: **Nouvelle tendance en analyse de discours**, édition Hachette, Paris, 1987, P117

كما نلمس بعض العوامل الحجاجيّة التي تساهم في الحجاج مثل أدوات الحصر والقصر... وكلّ ذلك من أجل تدعيم وبيان قوّة ما يقول، والتأكيد على حقيقة صدق أقواله لذلك نجد اِبن المقفّع متوسِّلا في اِستعمالها.

أمّا التِّكرار، فكان الغرض منه ترسيخ الفكرة في ذهن المتلقِّي فحين يعالج موضوعا من المواضيع، يتحدّث فيه في صفحة ثم يعود إليه في صفحات أخرى خاصّة وإن كان في الأخلاق والآداب العامّة، يقول اِبن المقفّع « **ذلِّل نفسك بالصّبر عن جار السّوء...واِعلم أنّ الصّبر صبران: صبر المرء على ما يكره و صبره عمّا يحبّ، والصّبر على المكروه أكبرهما... وليس الصّبر الممدوح بأن يكون جلد الرجل وقّاحا على الضّرب...ولكنّ الصّبر الممدوح أن يكون للنّفس غلوبا**»[1] ويقول: «**وإنّ الصّبر عليها هو الذي يحفّفها عنك، والصّبر هو الّذي يراكمها عليك**»[2]، كما تضمّن **الأدب الكبير** صورة أدبيّة هي التّشبيه، وردت للإقناع والغرض منه هو إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النّفوس بمحلّ القبول لتتأثّر بمقتضاه، فورد التّشبيه حين ينصح السّلطان كي لا يستعين على أعدائه بقوم لا يثق فيهم، يقول اِبن المقفّع:« **ولا تغرنّك قوّتك بهم على غيرهم، فإنّما أنت في ذلك كراكب الأسد الذي يهابه مَن نظر إليه وهو لمركبه أهيب**»[3].

كما نجده يشرح طبائع الإنسان فيقول: « **وهي كامنة كمون النّار في العود فإذا وجدت قادحا من علّة أو غفلة اِستورت كما تستورى النّار عند القدح لا يبدأ ضرّها إلاّ بصاحبها، كما لا تبدأ النّار إلاّ بعودها الذي كانت فيه**»[4]. وهنا نكشف عن عظيم تأثير هذا الفنّ في نفس المتلقِّي إقناعا وإمتاعا. إنّ هذه الاِستراتيجيّة التّخاطبيّة لا ينتظر منها اِبن المقفّع إلاّ فائدة.

1- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص58.

2- المصدر نفسه، ص103.

3- نفسه، ص27.

4- نفسه، ص84.

من هنا يتبادل إلى أذهاننا كيف اِحتوى كلام اِبن المقفّع فائدة يستفيد منها المتلقي، يؤكّد **مانغونو Maingueneau** « **أنّ الشّخص المهمّ كلامه يفترض أن تكون فيه فائدة**»[1]. والقارئ **للأدب الكبير** يضع في ذهنه أنّ المتكلِّم سيفيده، لذلك نجد هذا القارئ يعمل المستحيل ليكشف عمّا هو مفيد في خطابات اِبن المقفّع، وهنا يتدخّل عامل آخر وهو أهميّة الشّخص، وهذه الأهميّة تتحدّد على حسب نوع الخطاب والسّياق[2].

إنّ مبدأ الإفادة يُعتبر القاعدة الأساسيّة حين عمليّة التّخاطب ويتحدّد في أقصى هرميّة قواعد المحادثة «**ونحن نعترف بأنّ كلّ الأحكام تنضوي تحت مسلّمة الإفادة**»[3]، ونشرح الإفادة التي تضمّنتها نصوص **الأدب الكبير** في المخطّط التّالي والذي يكشف عن صدق ذوات اِبن المقفّع[4].

1 - Maingueneau : **Pragmatique pour le discours littéraire**, P106.
2 - Voir: Ibid, P106.
3 - C.K. Orecchioni: **L'implicite,** P199.
4- فتيحة بوسنة: **اِنسجام الخطاب في مقامات السّيوطي**، ص53

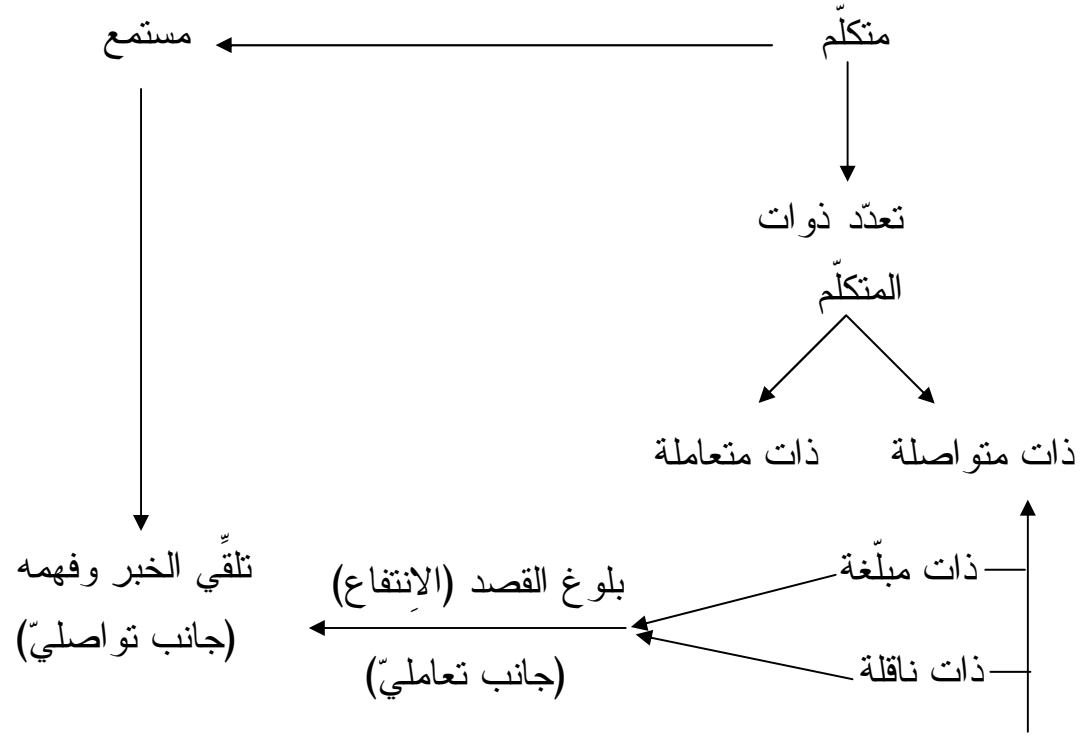

4-الإحالة (الاِفتراض المسبق):

في هذه المرحلة سنحاول اِستكشاف بعض المعاني التي لا تظهر في الخطاب بصفة صريحة، إمّا لأنّ المتكلِّم لم يفصح عنها، أو لأنّه لم يرغب الإفصاح عنها، مع وجوب مراعاتنا لسياق الخطاب وفق معارف المتكلِّم واِهتماماته. في هذه المرحلة نقدِّم للسّامع فرصة اِستنتاج معانٍ قد لا تظهر في الخطاب بصفة صريحة، وكلّ هذا من أجل ألاّ يُتّهم المخاطِب بالكذب وهذا ما يخلق عدم التّفاهم والاِنسجام بين المتكلِّم والمستمع. وترى "أوريكيوني" «**أنّ الخبر يُعطى بكل ما يحتويه من المعلومات وهذا في حدود الإفادة، لكن مع تجنّب إعطاء كلِّ شيء، وذلك لتفادي بعض الأضرار التي يمكن أن تلحق بالمتخاطبين**»[1].

1 - C.K.Orecchioni, **L'implicite,** P220.

إنّ السّياق هو الذي يجعل المتكلِّم يضطرّ إلى عدم التّصريح التّام بكلِّ ما يعرفه، وذلك اِجتنابا للضّرر الذي يمكن أن يتسبّب له، فليس للقارئ أو المتلقِّي إلاّ أن يكشف عن هذه الإحالات لأنّ « **القصد قطب الرّحى في عمليّة التّواصل**»[1]. وهو مفتاحٌ للفهم الحقيقيِّ الذي نكتشف عنه بعد إدراك هذه الضّمنيّات التي لجأ إليها اِبن المقفّع في ظلّ كلِّ العقبات، ومن أجل ذلك يُلقى الخبر غير مصرّحٍ بـــه أو يلقيه بطريقة يُوهِم فيها المتلقِّي أنّه يقصد شيئا وهو في الحقيقية يقصد آخرا.

وقد يلجأ إلى التّلميح لأنّه أبلغ من التّصريح، كما يذهب إلى ذلك أهل البلاغة «**البلاغة علم كثير في قول يسير**»[2].

ويتّفق التّداوليّون –رغم اِختلاف اِتّجاهاتهم– أنّ الكلام بين المتكلِّم والمخاطَب يخضع لقانون الإخباريّة، فقد تُلقى الأخبار على المخاطَب بطريقة مضمَّنة حتّى يوجِّه المتلقِّي إلى التّفكير في الشّيء غير المصرَّح به، ويسمِّيه علماء البلاغة العربيّة بمصطلح **المقصّر من القول** أي «**ما لا ينبيك بمعناه عند سماعك إليه ويُحوجك إلى شرح** »[3].

ويسمِّيه علماء الدّلالة **بالاِفتراض المسبق** « **وهو كلّ المعلومات المطروحة بانفتاح، وتكون مع ذلك واردة تلقائيّا في صياغة الملفوظ الذي يعيّنها أصلا مهما كانت خصوصيّة إطار الملفوظ**»[4]، وبمعنى إخبار المخاطَب بجميع المعلومات التي يحويها السّياق دون أن يصرِّح له بشيء وبذلك يُحمله على التّفكير في كلامه. أو يجعله يفكّ تلك الرّموز اللّغويّة وبذلك يتوصّل إلى فهم ما أراد المتكلِّم، وعند كلِّ عمليّة من عمليّات التّبليغ ينطلق الأطراف (المتخاطبون) من معطيات أساسيّة

1– عبد السّلام المسدي: **المواضعة والعقد في النظرية اللغوية عند العرب**، مجلة المورود، م14، ع1، تصدر عن وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1985، ص6.

2– أبو هلال العسكري: **الصّناعتين**، ص37.

3– المصدر نفسه، ص36.

4– كميلية واتيكي: **كتاب الإمتناع والمؤاسسة لأبي حيّان التّوحيدي**، ص251.

معترَف بها ومعروفة وهذه الاِفتراضات المسبقة لا يصرِّح بها المتكلِّمون، وهي تشكِّل خلفية التّبليغ الضّروريّة لنجاح العمليّة التّبليغيّة، وهي محتواة في القول سواء بلفظٍ بهذا القول إثباتا أو نفيا[1] وهذه عبارة عن مجموعة من المعلومات مضمّنة في هذا القول، كما تقول **أوركيوني «فهو المعلومات وإن لم يصرَّح بها فإنّها وبطريقة آليّة واردة ومُدرَجة في القول التي يتضمّنها أصلا بغضِّ النّظر عن خصوصيّته في إطار الحديث الذي يتجلّى فيه»**[2]، هذه المراوغة في الكلام سببُها أحوال الخطاب التي تتحكّم في طريقة القول، ويلفت **ديكرو** الاِنتباه إلى أنّ اللّجوء إلى هذا الاِستعمال في الخطاب لا دخل للإرادة فيه دائما، وهذا ما يجعل في بعض الأحيان سوء التّفاهم بين المتخاطبين، فالمخاطَب قد يخطئ في إدراكه لقصد المتكلِّم رغم عدم صدق ما ضنّه به، لكن وفي بعض المقامات يلجأ المتكلِّم إلى بعض الحيل الأسلوبية حتى يؤثر في مخاطبيه[3]. وتتحقّق متضمّنات القول إذا اِتّبع المتلقّي نسقا اِستنتاجيا منطقيا للكشف عن الدّلالة الخفيّة في القول الأصلي، وهذه العملية الاِستنتاجيّة هي شرط أساسي لنقول أنّ الكلام يدخل في إطار مجال الكلام غير المصرّح به والمتحقّقة في واقع الخطاب.

إنّ **الأدب الكبير** اِحتوى الكثير من هذه الاِفتراضات المسبقة، يعود ذلك لطبيعة الموضوع المعالَج، لقد كان اِبن المقفّع مضطرّا لاِستخدام الضِّمني لتمرير خطابه إلى الرّاعي والرّعية، ولفطنته وذكائه الكبيرين يلجأ إلى اِستخدام مثل هذه الحيل، حتّى يبلغ غايته المرجوّة والمتمثِّلة في محاولة نقله للمثل الأعلى إلى السّلطة وإلى الأمّة حتى يحتذوا حذوه وبذلك يكون قد أرشدهم وغيَّر من سلوكاتهم دون التّصريح بذلك، فالوضع السِّياسيُّ والاِجتماعيُّ جعلاه يستعمل هذه الضّمنيات (الاِفتراضات).

1- ينظر: ج. دلاّش: **مدخل إلى اللسانيات التّداولية**، ترجمة: محمد يحياتن، د.ط، الجزائر، 1993، ص34.
2 - C.K. Orecchinoni, **L'implicite**, P25.
3 - Voir : O.Ducrot : **Dire et ne pas dire**, P13.

ولمّا كان الخطاب موجَّها إلى السّلطان، أجاد اِبن المقفّع في التّعبير عمّا يقصده فهنا تتّضح أهميّة اِستثمار عناصر السّياق لنقل قصد المرسل عند إنتاج الخطاب. يقول اِبن المقفّع « **ليس للملك أن يغضب، لأنّ القدرة من وراء حاجته، وليس له أن يكذب لأنّه لا يقدر أحد على اِستكراهه على غير ما يريد، وليس له أن يبخل لأنّه أقل النّاس عذرا في تخوّف الفقر وليس له أن يكون حقودا، لأنّ خطره قد عَظُم على مجارة كلّ النّاس وليس له أن يكون حلاّفا، لأنّ أحقّ النّاس باتّقاء الأيمان الملوك، فإنّما يحمل الرّجل على الحلف إحدى هذه الخصال: إمّا مهانة يجدها في نفسه وضرع وحاجة إلى تصديق النّاس إيّاه، وإمّا عَيٌّ بالكلام فيجعل الأيمان له حشوا ووصلا وإمّا تُهمة قد عرفها من النّاس لحديثه، فهو ينزّل نفسه منزلة من لا يُقبل قوله إلاّ بعد جهد اليمين، وإمّا عبث بالقول وإرسال اللّسان على غير رويّة ولا حسن تقدير، ولا تعويد له قول السّداد والتّثبيت**»[1].

ألا يجعل هذا القول القارئَ يفكّر في السّلطان، ويستنتج أنّه سريع الغضب يكثر من الكذب ومن البخل ومن الحقد والحلف، فلا أحد يجبره على القيام بهذه الأشياء، إنّ زمام الأمور بيده فهو ليس بفقير ولا بمجبر ونجده قد ركّز على خصلة الحلف، فكيف يحلف السّلطان وهو أحقّ النّاس باتّقاء الأيمان، أليس هذا تلميحا إلى أنّه يحسّ في نفسه بالذّلِّ، لذلك يريد أن يصدِّقه النّاس، أو أنّه عاجز في الكلام لذلك يجعل كلامه حشوا أو تهمة عرفها من النّاس، أو لغوا من غير تفكير، ولا حسن تقدير، ممّا يجعل كلامه لا يحمل أيَّ نوع من الصّواب ولا من الثّبات.

ويقول عن السّلطان « **لا تكوننّ نزر الكلام والسّلام ولا تبلغنّ بهما إفراط الهشاشة والبشاشة، فإنّ إحداهما من الكبر والأخرى من السّخف**»[2]، يتوضّح للقارئ من خلال هذا القول أنّ اِبن المقفّع يضمِّن في قوله أنّ السّلطان يتّصف بإحدى الخصلتين، إمّا التّكبّر، فهو لا يتكلّم مع النّاس وبذلك لا يراعي مصالحهم ولا

1- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص27-28.

2- المصدر نفسه، ص26.

يعرف عن شؤونهم شيئا، وإمّا أن يتّصف بالسّخف حيث يفرّط في الكلام مع النّاس فلا يميِّز الصّديق عن العدو، ولا بين مَن هم أهلٌ للثِّقة ومن هم غير ذلك ولا بين المحبّ للبلد والكاره لها، فيتقرّب منه الأشرار، وينال منه الأنذال، فيتّصف بالسّخف عند الأشراف.

إنّ ما تضمّنته الجملة في خطابات ابن المقفّع –والتي كانت إلى السّلطان– من خصائصَ فنيّةٍ لها كثيرٌ من المظاهر تتّضح في مواطنَ مختلفةٍ، فمن استخدام الأسلوب النّثريِّ الأدبيِّ المتضمِّنِ الطّابعَ العلميَّ، إذ يحاول فيه تحرِّيَ الوضوح في الأسلوب قصد توصيل الفكرة المقصودة، ويستعمل الكلمة المناسبة للمعنى المراد إلى أسلوب النّثر الفنيِّ ذي الطّابع الأدبيِّ الخالصِ الذي يشمل على أفكار فلسفيّة يبسط الكاتب فيها القول فيه شارحا ومحلِّلا، حيث يقسِّم المعاني تقسيما فيه منطقٌ عدديٌّ ويرتِّبها ترتيبا تعاقبيّا، وغالبا ما يعرض فكرته في هذا الثّوب، كما أنّ هذه الطّريقة ليست مستحدثة ومن الدّارسين مَن يردّ أصلها إلى الحضارة الفارسيّة[1].

هذه الضّمنيّات احتواها معظم الكتاب، وردت أيضا في الباب الثّاني **صحبة السّلاطين** يقول ابن المقفّع: «إن ابُتليت بصحبة السّلاطين فعليك بطول المواظبة في غير معاتبة ولا يحدثنّ لك الاستئناس به غفلةً ولا تهاونا»[2].

نستنتج من هذا القول، أنّ ابن المقفّع يتوجّه إلى كلِّ فرد يريد مصاحبة السّلطان أو أُجبر عليها لسببٍ من الأسباب، فعليه إذن أن يتجنّبها، فقد وصفها بالابتلاء، وهذه الكلمة تحمل دلالة ضمنيّة وهي ما يحمله السّلطان من متاعب لمصاحبه، فكأنّه يخاطب المتلقِّي، ويقول له – دون أن يصرِّح بذلك – لا تصاحب السّلطان، فإنّك ستعاني الكثير من هذه الصّحبة لطول المواظبة وكثرة المثابرة ضف إلى ذلك أنّه لن يتسنّى لك إعطاء رأيك أمامه، ولربّما يفهم المتلقِّي أنّ مصاحب

1– ينظر: عاشور المنصف: **التّركيب عند ابن المقفع في مقدّمات كليلة ودمنة، دراسة إحصائية وصفية**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1980، ص79–80.

2– ابن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص35.

السّلطان يعاني من دكتاتوريّة الرّأي وكبت الحريّة، فعليه فقط بمساندته ظالما أو مظلوما، لعلّ كلامه هذا خير دليل على ذلك، ونجده هنا يقصد الوالي وهي مرتبة في الحكم تلي السّلطان. فيقول « **إذا اُتبليت بصحبة والٍ لا يريد صلاح رعيّته فاِعلم أنّك خيّرت بين خلّتين ليس منهما خيار، إمّا الميل مع الوالي على الرّعية، وهذا هلاك الدّين، وإمّا الميل مع الرعيّة على الوالي وهذا هلاك الدّنيا ولا حيلة لك إلاّ بالموت أو الهرب** »[1].

كما وجِّهت هذه الضّمنيّات أيضا إلى عامّة النّاس، فهو يخاطبهم في بعض الأمور، وبطريقة غير مباشرة، حتّى لا يقع في دائرة الحرج، فهو يضع نفسه قارئا مفترَضا كأنّه يتحاور معه، لذلك عليه أن يتجنّب ما قد يجرح شعوره، بل ويلجأ إلى التّضمينات حتّى لا يكون أيُّ صدا من طرف القارئ. نجده في هذا القسم يركِّز دائما على الأخلاق وما يحتاج إليه النّاس من آداب عامّة، والتي يجب أن تتبنّاها الرعيّة عكس القسم الأول الذي يركّز فيه الحديث عن أحوال الحكم والحكّام.

يقول اِبن المقفّع «**لا يعجبنّك إكرام من يكرمك لمنزلة أو لسلطان فإنّ السّلطان أوشك أمور الدّنيا زوالا، ولا يعجبنّك من يكرمك للمال، فإنّه هو الّذي يتلو السّلطان في سرعة الزّوال ولا يعجبنّك إكرامهم إيّاك للنّسب، فإنّ الأنساب أقلّ مناقب الخير غناء عن أهلها في الدِّين وفي الدّنيا**»[2].

يقصد من كلامه أنّ النّاس ينظرون إلى أخيرهم، وتعلّقهم بالسّلطان والمال والنّسب، وهذا ما يدّل على كثرة المصالح، أين يجب تقييم المرء بالنّظر إلى دينه ومروءته، فطغت بذلك الماديّة، مع أنّ المراتب سوف تزول لا محالة، فالقارئ يستنتج أنّ الصّورة الماديّة طغت على النّاس بدل أن تطغى عليهم الأخلاق، فَقَدَ النّاسُ بذلك الكثير من القيم والمبادئ التي يُبنى عليها المجتمعُ الصّالحُ.

1- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص35.

2- المصدر نفسه، ص110-111.

يقول ابن المقفّع: « **وقد رأينا النّاس من يعلّق الشّيء ولا يقلع عنه وعن الحديث به، ولا يمنعه قلّة قبول أصحابه له من أن يعود إليه ثم يعود**»[1] هذا الكلام إشارة غير مباشرة إلى انتشار الكذب، وعدم المبالاة لا بقائل الخبر، ولا بصحّته بقدر أهميّة إيصاله، حتّى ولو أدرك هذا الشّخص أنّ النّاس لا يقبلون منه الخبر.

فهو يصرّ على تلك الخصله، ويعبِّر عن هذه الفكرة بقالب أدبيٍّ وهو المثل فيقول: **لا تقل كما يقول السّفهاء: أُخبر بما سمعت.**

وهذا يدّل على فساد الأخلاق وتفشّي الأمراض الاجتماعيّة آنذاك فالكتاب كلّه مضمَّن بإشارةٍ إلى الظّروف السّياسيّة والاجتماعيّة وقتئذ.

يُمرِّر ابن المقفّع هذا الكلام غير الصّريح بطريقة ذكيّة، استعمل فيها الدّهاء حتى لا يتفطّن له الحاكم خاصّة، صاغه على شكل أمثال وحكم ومواعظ، فابن المقفّع يمتلك اللّغة في مستوياتها المعروفة وكذلك معرفته بقواعد تركيبها وسياقات استعمالها، هذا ما جعل خطابه يرقى إلى أعلى مستوى من الأدبيّة، فالشيء الذي يجعل خطابا ما يؤثِّر على المتلقِّي هو إذا كان هذا الكلام راقيا يبعث اللّذّة والمتعة الأدبيّة لَدى القارئ «**فالكلام الأدبيُّ حسب تودوروف هو الكلام الذي يبعث اللّذّة أو يثير الاهتمام لدى سامعه أو قارئه، ممّا يجعل الخلود مصيره، إنّه قول أكثر صناعةً من الكلام العاديِّ**»[2]، أمّا ما يقصده يتوقّف على مدى استنتاجات المتلقِّي ورجاحة عقله في التّأويل.

يقول ابن المقفّع «**لا تتركنّ مباشرة جسيم أمرك فيعود شأنك صغيرا، ولا تلزمنّ نفسك مباشرة الصّغير، فيصير الكبير ضائعا**»[3] يلمِّح ابن المقفّع ها هنا إلى السّلطان آنذاك، فكان يتهاون على المهام الكبيرة التي تهمّ شؤون البلاد وشؤون

1- ابن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص106.

2- علي ملاّحي: **اللّغة والأدب**، مجلة تصدر عن الجامعة المركزية، الجزائر، عدد خاص بملتقى علم اللّغة، ع12، 1997، ص204.

3- المرجع السابق، ص21.

الرّعيّة، ويهتم بالأمور الصّغيرة، التي لربّما تخصّ مصالحه الشّخصيّة، أو أمورا لا تنفع الرّعيّة والبلاد، وحين يقول (فيعود شأنك صغيرا) هذا يجعلنا نفترض أنّ السّلطان حقّا صغير إن صحّ الإفتراض الأوّل، وفي الجملة (فيصير الكبير ضائعا) فإن اِهتمّ بالأمور الصّغيرة فكيف لا يضيِّع كبيرها.

إنّ القارئ **للأدب الكبير** لابدّ له من معرفة مرجعيّة الخطاب وكذا الظّروف التي أُنجز فيها الكتاب، أو عليه أن يعرف السّياق الذي صاغ فيه كلامه، وهذا من أجل إنجاح العمليّة التّواصليّة القصديّة. يتجلّى من خطابات اِبن المقفّع أنّه يسعى وراء تحقيق هدف مثاليٍّ وهو إصلاح الوضع الاِجتماعيّ والسّياسيّ والتحليّ بمكارم الأخلاق.

إنّ الغرض من القوالب الأدبيّة من مثلٍ وحكمةٍ النّصحُ والإرشادُ وإيقاظُ العقول وتفطينُ القلوب، فلم تكن موجَّهة إلى الرّاعي فحسب بل وإلى الرعيّة، فجاء في خطابه «**اِعلم أنّ مِن أوقع الأمور في الدِّين وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال وأقبلها للعار، وأزراها للمروءة وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار الغرامُ بالنّساء**»[1]. نستنتج أنّه يقصد أنّ الرِّجال – في عصره – يسرفون في حبِّ النّساء ممّا يُذهب مالهم وعقلهم ويقلِّل من مروءتهم وقوّة أجسامهم وهذا ما اُشتهر في العصر العباسيِّ من ترفٍ ومجونٍ. ومن قوله أيضا نفهم أنّ الرّجال كانوا يتركون أعمالهم وواجباتِهم ويضيِّعون الوقت فيما لا نفع فيه وحيث يقول "**لا يعجبنّك إكرام من يكرمك لمنزلة أو لسلطان فإنّ السّلطان أوشك أمور الدّنيا زوالا، ولا يعجبنّك من يكرمك للمال فإنّه هو الذي يتلو السّلطان في سرعة الزّوال..... فإنّ المروءة لا تزايلك في الدّنيا وإنّ الدِّين لا يزايلك في الآخرة**" فلو اِفترضنا أنّ في عصره سادت الطّبقيّة، فئة أرستوقراطيّة تملك من الجاه والرّفاهية، وطبقة كادحة لا تملك شيئا ممّا يجعل هذه الأخيرة تتعامل مع الأولى على أساس المصلحة، وينبِّه إلى أنّ

1- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص97-98.

السّلطان والمال معروضات للزّوال، لذا يجب التّحلّي بالدِّين والمروءة، لأنّهما أبقى في الدّنيا وفي الآخرة.

أمّا القسم الثاني من الكتاب، فيرتكز فيه ابن المقفّع على تفشّي بعض الأمراض الاجتماعيّة وانحلال الأخلاق، كذلك تفكّك البنية الاجتماعيّة ممّا يؤدي إلى تدهور العلاقات بين أفراد الأمّة، فيقول «**احترس من سَورة الغضب وسورة الحميّة وسورة الحقد وسورة الجهل، وأعدد لكل شيء من ذلك عدّة تجاهده بها من الحلم والتفكّر والرّويّة وذكر العاقبة وطلب الفضيلة**»[1] كما يقول «**ليكن ممّا تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألاّ تكون حسودا، فإنّ الحسد خلق لئيم**»[2]. يقول أيضا «**اعلم أنّ فضل الفعل على القول زينة وفضل القول على الفعل هجنة وأنّ أحكام هذه الخلّة من غرائب الخلال**»[3] ويقول أيضا «**اعلم أنّك إذا جاوزت الغاية في العبادة صرت إلى التّقصير، وإن جاوزتها إلى حمل العلم لحقت بالجهّال وإن جاوزت في تكلّف رضا النّاس والخفّة معهم في حاجتهم كنت المحسر المضيِّع**»[4].

نلتمس من هذه الأقوال خطابا ضمنيّا يريد من خلاله ابن المقفّع الإصلاح وهو موجَّه إلى الرعيّة، فهو يلمِّح إلى انعدام الأخلاق في مجتمعهم وضاعت الفضائل وحلّت محلها الرّذائل، فانتشر الحسد والحقد والجهل وأصبح الفعل يعوَّض بالقول، فضاع الحلم والتفكّر والرّويّة، كما نفترض أنّ من النّاس مَن يتظاهرون بالرِّياء، فجاوزوا الغاية في العبادة حتّى أصبحت تقصيرا، وجاوزوها في العلم حتّى صارت جهلا وجاوزوها في التّكلّف حتّى أصبحوا متصنِّعين.

وفي ظلِّ كلِّ هذا، فيما تكمن قيمة هذه الإحالات والافتراضات؟ إنّ الافتراض المسبق يجعل الخطاب غير متقطِّع، وبذلك يكون هذا الخطاب متماسكا

1- ابن المقفّع: **الأدب الكبير**،.ص83

2- المصدر نفسه، ص88

3- نفسه، ص102.

4- نفسه، ص105.

وفي سيرورة دائمة، يقول **ديكرو** «**أمّا الإفتراضات المسبقة فإن كانت لها وظيفة فهي تمثِّل الشّرط الأساسيَّ للتّماسك (العضويّ) للخطاب، وأنّها تضمن بأنّ الأقوال تنتمي حقيقة إلى الحوار وأنّها تمثِّل نصّا واحدا وليس مجموعة أحاديث مستقلّة**»[1] لأنّه يخلق أسئلة جديدة مستنبَطة من الإفتراضات المضمَّنة في الأقوال المقرّة على المتلقِّي وبذلك يكون الخطاب متسلسلا.

إنّ للإفتراض المسبق حسب **ديكرو** دورا في إنجاح العمليّة التّواصليّة إضافة إلى جعل الخطاب متماسكا، كما يمكن لهذا الإفتراض أن يساهم في تغيير سلوك المخاطَب، فلمّا يقول ابن المقفّع «**اِعلم أنّه ستمرّ عليك أحاديث تعجبك، إمّا مليحة وإمّا رائعة، فإذا أعجبتك كنت خليقا أن تحفظها، فإنّ الحفظ موكَّل بما ملح وراع**»[2]، فلو يدرك المتلقِّي هذا القول ويعمل به ويحفظ من الأحاديث الرّائعة ما اِستطاع، نقول أنّ ابن المقفّع تحقّقت مقصديّته وهي التّغيير من سلوك المخاطَب. أمّا في حالة ما إذا رفض المتلقِّي هذه الإفتراضات، يؤدي ذلك إلى تحوّل الحوار بينهما إلى جدال ممّا يجعل الخطاب غير تأثيريٍّ. ففي حالة رفض قارئ **الأدب الكبير** تلك الإفتراضات، أو حَدَثَ سوءُ تفاهم في الأفكار، فلن ننتظر من المتلقِّي غير رفض ما جاء في **أدبه الكبير**. وبما أنّ القصديّة تتعدّد بتعدّد السِّياق لذا وجب على المخاطِب أن يُبدع دلالته على القصد بتوليدها لغويّا فيستعمل آلياتٍ معيّنةً مثل المجاز بأنواعه ويتكئ على السِّمات الدّلاليّة في المعجم الذِّهنيِّ المشترك بينه وبين المرسل إليه، كما يجب أن يستعمل المخاطِب القوالب اللّغويّة المأثورة مثل التّعبيرات الاِصطلاحية المحفوظة عنده بشكلها اللّغويِّ ومعناها، إذ لها معنى قارٌّ في ذهنه و في ذهن المرسل إليه، ويتّفق معناها مع قصده.

ولهذا يفترض ابن المقفّع وجود عدّة مستويات من المتلقِّي، لذا تجده يعتمد إلى طريقة يحاول فيها التّأثير على أكبر قدر ممكن من هذه الطّبقة، فالإفتراض المسبق

1 – Ducrot : **Dire et ne pas dire** , P 90 -91.

2– ابن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص106.

يعمل على التّأثير في الآخرين، وهذا ما تراه **أوركيوني** «**إنّ الإفتراض المسبق التّداوليّ هو تلك المعلومات التي يحتويها الكلام والتي ترتبط بشروط النّجاح التي لا بدّ أن تتوفّر لكي يكون الفعل الكلاميُّ المرادُ تحقيقه قابلا لأن يفضي من النّاحية التّأثيريّة**»[1]، هذا الإفتراض يلعب دورا كبيرا في تحديد العلاقات بين المتخاطبين أي أنّه يتحكّم في الفعل التّأثيري بين المتكلِّم والمتلقِّي.

وعندما يُخلد خطاب ما يضمن التّواصل الفكريَّ والتّلقين المعرفيَّ للآخرين «**ويبقى فهمُ الخطاب وتأويلُه أمرا نسبيًّا يختلف من شخص لآخرَ، حيث نلفت انتباهنا إلى عمليّة تلقِّي النّصوص وتفاعل القارئ المستقبِل لها، حيث يمكن أن تتوافق أهدافه مع أهداف الكاتب (مؤلِّف النّص) كما يمكن ألاّ تتوافق، فقد يصير قارئ النصِّ الأصليِّ نصًّا آخرا عند القراءة والتّلقِّي ليتناسب معتقدُه وأهدافه ومعارفه....وإن كنّا نفترض أنّ بين المؤلِّف والقارئ قدرا مشتركا من المعتقدات والمعارف**»[2].

1 – C.K.Orecchioni: **L'implicite**, P 36.

2– خولة طالب الإبراهيمي: **مجلّة اللّغة والأدب**، مجلة تصدر عن الجامعة المركزية، عدد خاص بملتقى علم اللّغة، ع12، 1997، الجزائر، ص117.

الفصل الثّالث

دور السِّياق في الكشف عن المقاصد الإجماليّة

1- السّياق الاِجتماعي وعلاقته بالمقاصد:

يُعرف السِّياقُ أنّه مجموعة الظّروف التي تحفّ حدوث فعل التّلفّظ بموقف الكلام....وتسمّى هذه الظّروف بالسِّياق[1].

إنّ مفهوم السّياق هو الوضعيّة الملموسة التي تُوضع وتُنطق من خلالها مقاصد تخصّ المكان والزمان والمتكلّمين... فكلّ ما نحن في حاجة إليه من أجل فهم دلالة ما يقال، ومن هنا تظهر أهمية السّياق وعدم حضوره في عملية نقل المقاصد إلى عدم وضوحها وظهور إبهامات كثيرة فيها[2].

يُعرّف جون ديبوا J.Dubois السياق أنّه « **مجموع الشّروط الاِجتماعية التي تؤخذ بعين الاِعتبار لدراسة العلاقات الموجود بين السّلوك الاِجتماعيّ واِستعمال اللّغة...وهي المعطيات المشتركة بين المرسل والمرسل إليه والوضعية الثّقافية والنّفسية والتّجارب والمعلومات القائمة بينهما**»[3].

إنّ الإعلان عن المقاصد الحقيقيّة لاِبن المقفّع يجعلنا نمرّ عبر مراحل في عصره وشخصيّته، «**فقصد المتكلم مرتبط بمعرفة ظروف النّص الموضوعيّة ووضعية المتكلِّم ومكانته ووضعية المخاطبين، ففهمُ الخلفيات المعرفيّة والظّروف التي شكّلت النّص (أو الكلام) مفاتيح هامة لإدراك المعاني التي يكتنفها النّص**»[4] وسنحاول وعبر تتبّعنا لمراحل حياته وعن طريق قراءاتنا لعدّة دراسات أن نلمّ بكلِّ جوانبه معتمدين في ذلك على تمحيص كلِّ المعلومات التي نجدها في الآثارالأدبيّة لإعطاء ولو فكرة واضحة لمعالم هذه الشّخصيّة البارزة في تاريخ الأدب العربيِّ لأنّ القارئ/المستمع حين يواجه خطابا ما لا يواجهه وهو خاوي الوفاض، وإنّما يستعين

1- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، **اِستراتيجيات الخطاب**، ص41.

2- ينظر: فرانسوار أرمينكو: **المقاربة التداولية**، ترجمة: سعيد علوش، د.ط، مركز الإنماء القومي، د.ت، ص5.

3 - J.Dubois : **Dictionnaire de Linguistique**, Larousse, Paris, 1973, P120-121.

4- محمد مفتاح: **المقصد والإستراتيجية**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة بحوث ومناظرات، دار البيضاء، 1993، ص58.

بتجارب سابقة، بمعنى أنّه لا يواجهه وهو خاوي الذّهن، فالمعروف أنّ معالجته للنّص المعاين تعتمد من ضمن ما تعتمده على ما تَراكم لديه من معارف سابقة تجمّعت لديه كقارئ متمرس قادر على الاِحتفاظ بالخطوط العريضة للنصوص السابق له قراءتها ومعالجتها[1]. وبهذه التجارب نأمل أن نعرِّف اِبن المقفّع الأديب والمترجم والمربِّي، ولِما لا السِّياسيّ.

لقد بدأت الدّولة العباسيّة ذا ميل منذ البدإ للعناصر غير العربيّة من منطلق سياسيٍّ خاطيءٍ خالٍ من الضّوابط خاضعٍ لترف الحكّام وأهوائهم ومصالحهم، منذ باتت عاصمة الدّولة أقرب إلى فارس، والسّلطة تحت نفوذ الفرس الذين قامت على أكتافهم الدّولة الجديدة: جنودا وضباطا ووزراء وكتّابا، فشرعت تُشيع التّقاليد الفارسيّة في محيط سياسيٍّ واِقتصاديٍّ وثقافيٍّ واِجتماعيٍّ.

مضى الطّابع العربيُّ فيه يتوارى أمام اِجتياح القيم الوافدة مع أبناء الشّعوب التي اِعتنقت الإسلام (فرسا) و(أتراكا) وغيرهم، وتوغّل أبناؤها في أجهزة الدّولة فأشاعوا أساليب قيم التّرف ليس في تشييد القصور وتأثيثها فحسب، بل في إعداد الموائد وعقد مجالس الشّرب والغناء والطّرب، فكان ذلك الأرضيّة الواسعة التي هيّأت لحياة لاهية عابثة، سرعان ما تسّرع يتقدّم فيها اللاّهون والمطربون والمغنّون ليس في حلقات الشّراب فحسب بل في الظّفر بالمال والجاه والرّخاء حتى التبذّل بعدما تبذّل الولاّة والخلفاء أنفسُهم، ساعد على ذلك الرّخاء الاِقتصادي غيرِ الخاضع للتّوجيه السّليم، فباتت المتعة الماديّة المباشرة مطلبا حياتيّا، أشاعت في الحياة الاِجتماعية التّهتّك والاِستهتار والتّطرّف أيضا في ذلك، حين توفّرت مختلف العناصر، لينشأ التّغزّل بالأرقاء والغلمان الذين غدوا ينافسون النِّساء، ليس بجمالهم فحسب بل بحُللهم وزينتهم وعطورهم كذلك، حتّى غدوا بدورهم نماذج تحذو حذوها الحسان، فتُصفِّفن شعورهنّ على نحو ما يفعل الغلمان، وترتدين ما يرتدون بل

1- ينظر : محمد خطابي: **مدخل إلى انسجام الخطاب**، ص61.

وتقلّدنهم في الحركات التي ليست بالرِّجاليّة ولا بالنِّسائيّة فشرع الفساد يستشري في جميع المناحي، فتتّسع دائرة الاِنحلال الذي كان البذرة للاِنهيار.

وفي ذلك الجوّ الذي كان غارقا في الرّفاهية والرّخاء أمام اِنفتاح خزائن الدّولة للموارد من جهة، وتحوّلها من جهة أخرى إلى منبع تُغدق منه الأموال عبثا وتَغمر ذوي اللّهو والطّرب والمجون.

وبعد هذه الفترة تتأسّس الدّولة العباسيّة من جديد على يد أبي العباس السّفاح الذي حكم في الفترة 136/132 هجري، قبل أن يخلفه حين وفاته أخوه أبو جعفر المنصور الذي اِمتدت ولايته أو خلافته أكثر من عشرين سنة 158/136 هجري وسيكون تحوّل اِبن المقفّع في هذا المناخ طبيعيّا.

2-السّياق السِّياسي وعلاقته بالمقاصد:

اِبن المقفّع هو روزبة داذويه الفارسيّ ولد في أسرة فارسيّة نحو سنة 106 هجري في قرية بفارس -أي إيران حاليا- تسمّى "جور" وهو ما يُطلق عليها اليوم "**فيروز آباد**"، وكان اِسم أبيه داذويه، لُقب باِبن المقفّع نسبة لأبيه، حيث نزل أبوه البصرة، وظلّ وفيّا لدين آبائه وأجداده ولم يلبث أن تولّى خراج فارس لأنّه اِستعرب سريعا نتيجةً لاِختلاطه بمواليه آلُ الأهتم، لكنّه سرعان ما ظهرت عليه خيانة في أموال الدّولة، فما كان من الحجّاج إلاّ أن يردّ على هذا التّصرّف، فضربه ضربا مبرحا حتى تفقّعت منه يدُه، فعُرف حينئذ بالمقفّع وعُرف اِبنه **روزبه** باِبن المقفّع ليتغيّر اِسمه بعد إسلامه ويصير **أبا عمر عبد الله** إلاّ أنّه بقي مشتهرا باِبن المقفّع وهو الغالبُ في كتب التّاريخ والأدب.

والمعروف أنّ أباه مات وهو لا يزال على دينه مجوسيّا ولم يسلم، وعلى هذا الدِّين نشأ اِبن المقفّع وتربّى، وكان أبوه قد أَولاهُ في الصِّغر عنايةً خاصّة وتشدّد في تأديبه وتعليمه منذ نشأته الأولى في فارس، وزاد في تشدّده وحرصه على اِبنه عند اِنتقاله إلى البصرة التي كانت حينذاك مقصدا لكثير من رجال العلم والأدب ومنتدًى

للشّعراء والأدباء، فاتّصل بآل الأهتم وهم يشتهرون باللِّسان والفصاحة والخطابة فأخذ ابنُ المقفّع يغترف من بلاغتهم وخطاباتهم، فأتقن اللّغتين الفارسيّة والعربيّة وتمكّن من أساليب الفصاحة والبلاغة، وزادت ثقافتُه اتِّساعا خاصّة بعدما كان قد نهل من ثقافة اليونان والهنود[1].

وفي ظلِّ هذه الأحداث و الصِّراعات، كان ابن المقفّع «**عينا ترى وأذنا تسمع ولسانا ينطق وقلما يسجِّل**»[2] فالعهد عهد انتقال، لقد اتّصل برجال الدّولة الجديدة ومضى يشتغل في الدّواوين، فكتب لسليمان بن عليٍّ عمِّ المنصور ووالِيه على البصرة، ولأخيه عيسى بنِ عليٍّ والي الأهواز وعلى يديه أعنق إسلامه وتكنّى حينئذ بأبي محمّد، ويقال أنّه لمّا كان في نيّته دخول الإسلام طلب من عيسى أن يؤجِّل ذلك إلى الغد ليتمّ إسلامُه بمحضر جماعة من الناس. وحدث أن حضر طعام عشاء فلاحظ عيسى أنّه يأكل ويزمزم، أو بعبارة أخرى يدعو بأدعية المجوس فسأله عيسى، أتصنع ذلك وأنت على نيّة الإسلام؟ فأجابه: كرهت أن أبيت على غير دين[3]. ويتّضح من هنا أنّ الرّجل شديد التّمسّك بعقيدته، والسّؤال الذي نطرحه هنا هل أخلص ابن المقفّع إلى هذا الدّين الجديد؟ وبعبارة أخرى: هل أسلم إخلاصا لله، أم أسلم ظاهرًا، وما إسلامه إلاّ مجاراة و سياسة و تقلّبا بتقلّب هذه الأوضاع؟

والحقيقة متى تصفّحنا كتابا يتحدّث عن شخصية ابن المقفّع إلاّ وجدنا صاحبه يتحدّث في موضوع زندقته إسهابا أو إيجازا تعمّقا أو إشارة، محاولا إقناعنا بما يذهب إليه في هذا الشّأن مستدلاّ من معلومات وبحجج «**خاصّة إذا ما رجعنا بذاكرتنا إلى الظّرف الذي أعلن فيه إسلامه وهو ظرف انتقاليٌّ يتطلّب نوعا من المرونة وحسن التّصرّف، وابنُ المقفّع بصفته رجلا ذكيا فطنا أسلم في أيام العباسيِّيـــن**

1- ينظر: عمر بن قينة: **الرؤية الفكرية في الحاكم والرعية لدى ابن المقفع**، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2000، ص15-30.

2- الفاخوري حنا: **ابن المقفع، نوابغ الأدب العربي**، ط1، دار المعارف، مصر، د.ت، ص11.

3- ينظر: شوقي ضيف: **العصر العباسي الأول**، ط2، دار المعارف، مصر، د.ت، ص508.

ولكنّ إسلامه لم يكن فيما يظهر صحيحا ولا خالصا لله»[1] ولم يكن حتىّ مخلصا لرجال الدّولة العباسيّة، وما إسلامه وتقرّبه من البيت العباسيِّ إلاّ مجاراة للأحوال ولباقةٍ سياسيّةٍ أراد من خلالها أن يُحقِّق جملةً من مطامعه التي كانت تراوده، ويجمع الدّارسون على عدم إخلاصه للدِّين الجديد «**أمّا عقيدته الدِّينيّة فملأى بالشّكوك والدّسّ ...رغم أنّه يغلِّف ذلك بعبارات إسلاميّة لإيهام الرّأي العام، وأنّ اِبن المقفّع لم يكن عديم الاِكتراث بالدِّين الإسلاميِّ فحسب وإنّما كان يحمل بُغضا ممزوجا بالشّكّ في أمر الدِّين، ويكفي أن يُتّهم اِبن المقفّع أنّه عارض القرآن**»[2] لكنّنا نستدلّ هنا بما أشار إليه الألوسي أنّ اِبن المقفّع رام أن يعارض القرآن فنظم كلاما وجعله مفصّلا وسمّاه سورا، فمرّ يوما بصبيٍّ فسمعه يقرأ الآية "**وقيل يا أرض أبلعي ماءك ويا سماء أقلعي**" فرجع إلى بيته ومَحَا ما كان قد بدأ به، وقال: أشهد أنّ هذا لا يُعارض أبدا وما هو من كلام البشر[3].

ومثلُ هذا القول يأخذنا من الحديث عن الظّرف الذي أسلم فيه اِبن المقفّع وهو من دون شك ظرف صعب ومضطرب إلى الحديث عن المادّة التي ألّفها وترجمها بصفتها الحاكم الأوّل الذي يبرز لنا فكره وغرضه من خلال مؤلَّفاته، وإن كنّا نميل إلى عدم الإسهاب، إلاّ أنّنا نشير إليه هنا إشارة طفيفة، وبالقدر الذي يمكننا من توضيح مسألة الزّندقة عند هذا الأديب، ولأنّ التّهم الموجّهة له ناتجة عمّا كتبه سواء تأليفًا أو ترجمةً، حتّى أنّ الكثير من المؤرِّخين يرجعون مقتله بسبب زندقته و نزعته الفارسيّة وسخريّته من العرب.

إضافة إلى الظّروف الصّعبة وكتبه المؤلّفة كرسالة الصّحابة وترجمته كليلة ودمنة كذلك النّزعة العقليّة التي يزعمها في تفكيره وما في ذلك من جحودٍ لأمور كثيرة هي من أساس العقيدة الإسلاميّة كالإيمان بالوحي، جميع هذه العوامل اِجتمعت

1- حسين طه: **من حديث الشعر والنثر**، د.ط، دار المعارف، مصر، د.ت، ص46.

2- التكريتي ناجي: **الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام**، ط1، دار الأندلس للطباعة والتوزيع، د.ب، 1979، ص266.

3- ينظر: محمد علي الصّابوني: **صفوة التفاسير**، المجلد2، د.ط، دار القرآن الكريم، بيروت، 1981، ص18.

لتجعل من زندقته شبه مؤكّدة لدى الجميع حتى أنّ أحد الدّارسين ذهب إلى القول بأنّه «**أكبر ملحدٍ ظهر في التّاريخ الإسلاميِّ**»[1] وأنّه اِشتهر بزندقته ومجوسيّته وبغضه للإسلام، وإن كنّا نرى في هذا الوصف مغالاة، إلاّ أنّنا لا ننكر أنّ اِبن المقفّع قد وَاجَهَ الدِّين الإسلاميَّ مواجهةً عقليّة صرفة وأنّه لم يكن شديد التّمسّك بدينه الجديد والدّليلُ على ذلك أنّ كُتبَه كانت شديدة البعد عن الإلهيات والكتب السّماويّة، وأنّ آراءه كانت ترتكز على العقل وعلى الكمال الإنسانيِّ وأنّه كان ذا نزعة إصلاحيّة أخلاقيّة نابغة من نفسه التي يراها بمثابة أدبه «**روى الأصمعي أنّ اِبن المقفّع سئل: مَن أدبُك؟ فقال: نفسي إذا رأيت مِن غيري حسنا أتيته، وإذا رأيت قبيحا أبيته**»[2] ونرى أنّ هذه النّفس التي تهدف إلى المحامد وتجتنب المساوئ ما هي إلاّ وليدة البيئة الثّقافيّة التي نشأ فيها اِبن المقفّع، حيث كان العهد حينئذ عهد اِنفتاح ونقل وترجمة، وكانت ثقافتُه مزيجا من ثقافات عديدة « **ففي هذه الثّقافة الإسلاميّة عنصرٌ يونانيٌّ، والعقلُ اليونانيُّ ميّالٌ إلى فلسفة التّعديل والتّحليل، وميلُه إلى المعنويات أكثر من ميله إلى الماديات...وفي هذه الثّقافة الإسلاميّة عنصرٌ هنديٌّ...والفلسفة الهنديّة فلسفةُ تأمّلٍ والعقلُ الهنديُّ عقلٌ دينيٌّ قبل كلِّ شيء، والأفكارُ الهنديّةُ فيما يقول الباحثون هي إلى الخيال أقرب منها إلى أن تكون أفكارا ملائمة للعلم ...وفي هذه الثّقافة الإسلاميّة عنصرٌ فارسيٌّ ...وفي هذه الثّقافة الإسلاميّة عنصرٌ سريالـيٌّ ولكنّه يونانيٌّ في أكثره ...فإنّ الذي اِتّفق عليه الباحثون في أمر الثّقافة الإسلاميّة هو أنّ أقوى العناصر التي تتألّف منها عنصران العنصرُ الفارسيّ والعنصر اليونانيُّ**»[3].

وهكذا اِستطاع اِبن المقفّع أن يعيش البيئة العباسيّة بعناصرها المختلفة العربيّة والفارسيّة والهنديّة وكذا اليونانيّة، ويتغذّى بهذا التّمازج الحضاريِّ، فكان أعظم ممثِّلٍ لهذا التّمازج، واِرتقى إلى القمّة التي كان يهدف إليها، حيث كان « **يُصرّ في**

1- التكريتي ناجي: **الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام**، ص259.

2- الفاخوري حنّا: **اِبن المقفّع**، ص17.

3- المرجع نفسه، ص7-8.

كلِّ عمل من أعماله عن مبدأ من المباديء الأخلاقيّة التي يراها خليقة به وبأمثاله من فضلاء النّاس وكان يصرّ في كلِّ أفعاله عن فكرة هي من خلق نفسه ونتيجة من نتائج فلسفته، فكان عقله لا دينه – كائنا ما كان هذا الدِّينُ – هو الذي يهديه إلى الطّريق التي يسلكها في معاملة النّاس ومواجهة الأمور، وكانت رغبته في المثل العليا وتعلّقه بها هي التي كانت تحمله على فعل الخير لأنّه خيرٌ وتجنّب الخبث لأنّه خبثٌ، فهو إذن ممّن كانوا يعبدون الفضيلة»[1]، ويقول **الفاخوري حنّا: «في الكتابين أثر هنديٌّ وفارسيٌّ، وفيها اِعتمادٌ على العقل في كلِّ شيء وسموّ الأخلاق والتّفكير، ولا يخلو الأسلوبُ فيها من تقطّع وتعقيد»**[2].

ومن خلال هذا القول تتّضح لنا معالمُ اِبنِ المقفّع النّفسية وأنّه كان يتمتّع بشخصية قويّة ومترفِّعة على الدّنايا، تهدف إلى السّموّ وإلى أعلى مستوى يمكن أن تبلغه الذّات البشريّة، وكان يستند في تحقيقه لجميع الخلال الكريمة من خلال مطالعته لأنواع الكتب التّاريخية والفلسفيّة وغيرها من الكتب المتوفِّرة حينذاك.

إنّ جميع هذه العوامل ستساعدنا على اِستكشاف المقاصد الحقيقيّة لاِبن المقفّع من خلال أدبه الكبير، ونتتبّع هنا نسقا اِستنتاجينا منطقيّا للكشف على الدّلالة الخفيّة فالسِّياق هو مرآةٌ للتّحليل وإدراك المقاصد، ويقارن "**اِبن قيِّم**" دلالة السِّياق بقصد المتكلِّم ومراده فيقول: «"**السِّياق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمَل والقطع بعدم اِحتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوّع الدّلالة، وهذا من أعظم القرائن الدّالّة على مراد المتكلِّم**" ويواصل فيقول: **فمَن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته»**[3].

1- الفاخوري حنّا: **اِبن المقفّع**، ص17.

2- الفاخوري حنّا: **منتخبات الأدب العربي**، منشورات المكتبة البوليسية، ط4، بيروت، 1969، ص187.

3- ابن القيم الجوزية: **بدائع الفوائد**، د.ط، المطبعة المنيرية، مصر، د. ت، ص4.

3- القول المضمر:

وعن طريقه يتمّ التّأويل والفهم: فهمٌ أوّلي لمعنى القول، ثم فهمٌ ثانٍ أو تأويل لمعنى معنى القول[1] وتعرّفه **أوركيوني** أنّه جميع المعلومات التي يمكن للكلام أن يحتويَها ولكن تحقيقها في الواقع يبقى رهن خصوصيّات السِّياق[2]، فالقول المضمر غير مستقرّ حسب رأي **ديكرو**، لأنّه يفتح عدّة تأويلات بالنِّسبة للمتلقِّي، وذلك حسب السّياق الصّادر عنه، بمعنى ما الذي يجعله يقول ذلك في ذلك السّياق؟ فهذه الأقوال إذن تتوقّف على قصد المتكلِّم وحدس المتلقِّي لذا «**ينبغي للمتكلِّم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكلِّ طبقة من ذلك كلاما، ولكلِّ حالة من ذلك مقاما، حتّى يقسِّم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسِّم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات**»[3]، إذن ستكون هذه المرحلة مرحلة اِستنتاج وفكّ الرّموز التي اِحتواها الخطاب، تقول **أوركيوني** «**إنّ الاِستنتاج هو قضيّة ضمنيّة، بإمكاننا أن نستنبطها من القول، ونستنتج محتواها الجانبيّ بتركيب معلومات ذوات أوضاع مختلفة (داخليّة وخارجيّة)**»[4]، إذن هو مرحلة بلوغ القصد من النّص ومن خارجه.

هذا ما اِلتمسناه من خطاب اِبن المقفّع، فكان خطابه موجّها إلى الراعي ثم إلى الرعيّة، فكان يراعي في كلِّ مرة المستوى الطبقيّ لكلِّ فئة «**فكلام النّاس في طبقات كما أنّ النّاس أنفسهم في طبقات**»[5].

لو عدنا إلى فترة اِبن المقفّع وجدنا أنّ **الأدب الكبير** أُنجز في ظروف سياسيّة واِجتماعيّة متردّية نستنتجها من الكتاب ذاتِه، وبمعرفتنا لسياق هذا الخطاب يمكن أن

1- ينظر: عبد السلام عشير: **عندما نتواصل نغير**، ص132.

2 - Voir : C.K.Orecchioni **: L'implicite**, P39.

3- محمد العمري: **في بلاغة الخطاب الإقناعي**، ص23.

4 - C-K- Orecchioni : **Op.cit,** P24.

5- الجاحظ: **البيان والتبيين**، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت، ص254.

نفتح الباب لعدّة تأويلات تتعلّق خاصة بالمقدِّمة التي وضعها اِبن المقفّع لكتابـــه فما وراء هذه المقدّمة؟

قد يكون اِبن المقفّع يمجِّد الأوّلين، فيذكر جميع محاسنهم، لأنّه يرى فيهم المثل الأعلى ويحبِّبهم لأبناء أمّته، حتّى يحتذوا حذوهم، ويقتدوا بهم، أو إنّه يرى في الأمّة وفي العصر الذي يعيشه تدهورا في كلِّ الأمور، عكس عصر الأوّلين فيقول عنهم أنّهم كانوا أحسن عقولا وأعمارا وعلما وأخلاقا ودينا...

كما يمكن أن نفهم من هذه المقدِّمة أنّ معاصريه لا اِستطاعة لهم في إضافة شيء بعد الذي وجدوه من كتب ورأي وأمثال وحكم ومواعظ وبلاغة وتعظيمٍ لله وتزهيدٍ للدّنيا، فلم يترك الأوّل للآخر شيئا.

كما نستنتج أيضا أنّه يقول : أنّ النِّظام السّائد آنذاك جعلهم يختلفون عنهم، هذا النِّظام يقيِّدهم في جميع الأمور، فكأنّه إذن يدعوهم للإحاطة به، كما نلتمس مدى تحقيره إيّاهم، وذلك بطريقة غير مباشرة، إنّهم لا يصلحون لشيء، بل هم يعيشون على أنقاض ما تركه الأوّل.

ويشير عبد اللّطيف حمزة إلى الفقرة الأخيرة من المقدِّمة "ولم نجدهم غادروا شيئا ... ما أنا كاتب في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس" فيقول: «**وكأنّه في هذه العبارة الأخيرة يقول إنّ الأوّل لم يترك للآخر شيئا، أو أنّه قد ترك له أشياء دقيقة، هي تلك التي يشرحها الكاتب للنّاس**»[1] فكلام اِبن المقفّع هذا يتوقّف فهمُه على مدى قدرة المتلقِّي البلاغيّة والمنطقيّة وحتى التّجريبيّة.

وسنعرض بعض الأقوال المضمرة التي تضمّنتها نصوص **الأدب الكبير** يقول اِبن المقفّع "**إذا اُبتليت بالسّلطان فتعوّذ بالعلماء**" يشير هذا الكلام بأنّ السّلطان اِبتلاء لأنّه يبعد عن الحقِّ وهذا لاِهتمامه لمصالحه الشّخصيّة وإهماله لمصالح الرعيّة، فقد يصيبه الغرور فتلفت من يده زمام الأمور، وفي قوله "تعوّذ بالعلماء" دلالة على أنّه

1- حمزة عبد اللطيف: **ابن المقفع**، ص159.

كان بعيدا عن العلم، جاهلا لا يفقه شيئا أو كان عالما لكن لا يعلم بمواضع علمه فكيف يسيِّر أمّة كاملة، فالسّلطة في ظلِّ هذا الحاكم فوضويّة أو يمكن أن نستنتج أنّه كان بعيدا عن العلماء وأنّ مجلسه يملأه أصحاب السّوء، ومن هذا، ما أورد ذكره في حديثه للخليفة (أبي جعفر المنصور) عمّا شهده في عهد سلفه (أبي عبّاس السّفاح) من تهافت الأوغاد حوله فتجنّبه لذلك الكرام، فيذكر أنّه وجماعة من أهل البصرة قدموا على (أبي العباس) فابتعد بعضهم حين رأوا حوله متهافتين "كنت في ناس من صلحاء أهل البصرة ووجهوهم...فمنهم من تغيّب... ومنهم من هرب بعد قدومه" حين شاهدوا الأوغاد يملأون ساحة الخليفة وهو ما يشين الحكم ويشوّه الأخيار أنفسهم في بطانته، فنار الشّر أسرع سريانا والتهابا[1].

وحيث يقول "**لتعرف رعيّتك أبوابك التي لا ينال ما عندك من الخير إلاّ بها**" وهذا دليل على أنّ الحاكم أو الخاصّة وساطة بين السّلطان والرعيّة.

وفي تحديده لأنواع الملك يراه ثلاثة : ملك دين وملك حزم وملك هوى وإنّه يميل إلى ملك حزم، والذي يقوم به الأمر ولا يسلم من الطّعن والتّسخّط ولم يضر طعن الضّعيف مع حزم القوي، وذلك حين يصفه فيقول "**ليتفقّد الوالي في ما يتفقّد من أمور رعيّته، فاتَّقِ الأخيار والأحرار منهم، فليعمل في سدِّها، وطغيان السّفلة منهم فليقمعه**".

يتجلّى من خطابات **ابن المقفّع** الموجّه إلى السّلطان دعوة إلى التّحلِّي بالصِّفات التي تعود بالفائدة على شخصه وعلى البلاد وعلى الرعية، فلو تأمّلنا قوله "**اعلم أنّه من العجب أن يبتلى الرجل بالسّلطان فيريد أن ينقص من ساعات نصبه**" وجدنا ما يبيِّن له أنّ خدمة المنصب الذي يشغله أولى بالاهتمام باللّهو والتّمتع والبحث عن الشّهوة، هذا الكلام يوجّهه ابن المقفّع بفطنة وذكاء، فلم يقل له وبطريقة مباشرة: أنت تضيِّع وقتك في تلك الشهوات. وهنا خرج الأمر إلى الإخبار (اعلم)

1- ينظر : محمد عبد الحي محمد شعبان: **الدولة العباسية والفاطمية**، د.ط، دار الأهلية للنشر، بيروت، 1981، ص95.

حتى يبدو كلاما مطلقا ينطبق على من يُبتلى بالسّلطان، وليس مخصّصا لشخص واحد، حيث اِستبدل ضمير المخاطب (أنت) أو (أنتم) بضمير الغائب (هو).

إنّه ومن خلال حديثه عن الصّحبة يتحدّث عن سلوك الكاتب أي الموظّفين الإداريِّين في تعاملهم مع السّلطان فيقول "**إن اُبتليت بصحبة السّلطان فعليك بطول المواظبة في غير معاتبة**" هنا يستخدم اللفظ (اُبتليت) وكأنّ الخاصّة زاهدة في شيء حتى اُبتليت به، وهو لفظٌ ذو مدلولٍ دينيٍّ، إلاّ أنّه يعبِّر عن الوضع المهنيِّ والاِجتماعيِّ للخاصّة التي تعمل دون عشيرة تحميها، فهي هامشة مقابل مركزيّة السّلطان، فهو معيّن على تحقيق رغباته، وفي هذا يقول اِبن المقفّع "**إذا اُبتليت بصحبة والٍ لا يريد صلاح رعيّته، فاِعلم أنّك قد خيّرت بين خليتين ليس منهما خيار، إمّا الميل مع الوالي على الرعيّة، وهذا هلاك الدِّين، وإمّا الميل مع الرعيّة على الوالي وهذا هلاك الدّنيا، لا حيلة لك إلاّ الموت أو الهرب**".

وحين يقول "**إيّاك أن يقع في قلبك تعتّب على الوالي أو اِستزراء له، فإنّه إن وقع في قلبك بَدَا في وجهك وإن كنت حليما، وبدا على لسانك وإن كنت سفيها**" وهذا نصح للخاصّة واليا كان أو كاتبا أو وزيرا، فهو يؤسِّس لنمط العلاقة بين السّلطان وخاصّته.

ولمّا يقول "**لا تكن صحبتك للملوك إلاّ بعد رياضة**" وهي دلالة على الطّاعة للأمير دون معارضة لمصاحِبه.

يقول اِبن المقفّع "**اِلبس للنّاس لباسين: لباس اِنقباض واِحتزار من النّاس تلبسه للعامّة، فلا يلقونك إلاّ متحفِّظا...ولباس اِستنباط واِستئناس، تلبسه للخاصّة الثِّقات من أصدقائك فتلقاهم بذات صدرك ...والتّحفّظ فيما بينك وبينهم**" هنا يعرض اِبن المقفّع نمطا جديدا من التّفكير إنّه يمثّل مفهوم الفرديّة والذي يراه في ثلاثة أفعال:

الأولى في مسألة السِّياسة والعلاقة بالحاكم، فإنّه يقرِّر سياسة الإداريّ الذي عليه أن يدرك شروط عمله، وهذا نمط جديد بعيد عن حالة البداوة.

أمّا المسألة الثّانية يؤسِّس لعلاقة صحابة السّلطان بالعلماء وأهل الدِّين والحكمة، أي رؤية جديدة في ظلِّ الدِّين والأدب والرّأي العام الذي يوافق العقل.

أمّا المسألة الثّالثة فيدعو إلى مطالبة اِقتران القول بالفعل.

ولمّا يقول «**اِعلم أنّ من النّاس ناس كثير يبلغ من أحدهم الغضب إذا غضب أو يحمله ذلك على الكلوح والقطوب في وجه غير من أغضبه... فإنّه ليس أحد أسوأ فيه حالا من أهل السّلطان الذين يفرطون باِقتدارهم في غضبهم وتسرّعهم في رضاهم ، فإنّه لو وصف بهذه الصِّفة مَن يلتبس بعقله أو يتخبّطه المسُّ أن يعاقِب عند غضبه غيرَ مَن أغضبه، ويعفو عند رضاه غير من أرضاه لكان جائزا ذلك في صفته**»[1] فماذا لو كان اِبن المقفّع هنا يوجِّه اِتِّهاما إلى السّلطان –وذلك بطريقة غير مباشرة– أنّه كان سريع الغضب وحين يغضب يؤذي مَن لا ذنب له باللّسان وباليد وعندما يرضي يعطي الأمور العظيمة الشّأن إلى أشخاص غير أكفّاء، وهكذا يكون قد أعطى مهاما لغير أصحابها، وسلب إيّاها من أهلها وبالتّالي يكون هالكا للرعيّة. ولعلّه يقصد من خطابه هذا إقناع الرعيّة للقيام بثورة ضدّ السّلطان – في ظل الفساد والظّلال– وتغيير الحكم، ما دام الأمر يتعلّق بشؤونهم، ولهذا تدور أغلب آثار اِبن المقفّع على محور العلاقة بين الراعي والرعيّة من حقوق وواجبات.

إنّ أهمّ ما عالجت خطابات اِبن المقفّع قمّة الهرم السياسيِّ والإداريِّ في الدّولة الإسلاميّة وهو الخليفة وصحابته، وكلُّ هذا كان نتاجَ ما حفظه عن الأوّلين من تلك الأمثال والحكم، فلم يكتفِ بحفظها فقط بل يريد أن يعلِّمها للمتلقِّي «**على أنّ الرجل لم يكن يكفيه أن يكون حافظا لهذا التّراث الفارسيِّ الغنيِّ، بل وكان يتناول هذا**

1– اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، ص23.

التّراث مرة بالنّقل وأخرى بالتّغيير والتّبديل، حتّى يلائم في هذا كلِّه بين العقل الفارسيِّ الذي يكتب عنه وبين العقل الإسلاميِّ الذي يكتب له»[1].

لقد كان اِبن المقفّع كثير الحذر، داهية يتستّر وراء حكمته «**وهو بين هذا كلِّه ينتقل بك من حكمة فارسيّة إلى أخرى توشك أن تكون إلى يونانيّة إلى ثالثة عليها مسحة إسلاميّة إلى رابعة ليست شيئا أكثر من كونها خلاصة لتجربة نفسيّة أو دينيّة أو سياسيّة أو اِجتماعية أو اِقتصادية**»[2].

لم يكن اِبن المقفّع يصرِّح بشيء ممّا قلناه، فكان يلتزم الحذر الشّديد آنذاك فهو يعلم ببطش الحاكم وهو الخليفة أبو جعفر المنصور، وغير بعيد أن يكون مقتل اِبن المقفّع على يد هذا الحاكم بسبب نصوصه الكتابيّة المتعدِّدة والمحشوّة بتلك الضِّمنيّات والأقوال المضمرة، ويرجّح الباحثون أنّ السّبب الحقيقي لقتله هي تلك الكتب التي كتبها، حيث نجد عدّة أقوال تبيِّن سبب قتله يقول حمزة عبد اللّطيف «**مهما يكن من الأمر فقد قيل أنّ أبا جعفر المنصور قرأ كتاب الآمان فاِمتلأت نفسه غيظا وسأل عمّن كتبه، فقيل له اِبن المقّفع كاتب عيسى اِبن عليٍّ، فقال أبو جعفر: فما أحد يكفينيه**»[3].

وقد يكون قتله بسبب **رسالة الصّحابة** وهذا ما أشار إليه **حمزة عبد اللّطيف** «**ولعلّ من الأسباب التي قتلت الرجل رسالة كتبها توشك أن تكون برنامج ثورة موجّهة إلى المنصور وهي رسالة الصّحابة**»[4] والصّحابة هم حاشية الخليفة، فإذا كان اِبن المقفّع في أعماله الأخرى مترجما أو ناقلا فإنّه في رسالة الصّحابة كان ناقدا لنظام الحكم «**ويفصح بشكل سافر العلل التي يشكو منها النِّظام الجديد على**

1- حمزة عبد اللطيف: **ابن المقفع**، ص96.

2- المرجع نفسه، ص161-162 .

3- نفسه، ص220.

4- نفسه، ص288.

عهد المنصور العباسي»[1] وهي بحقّ تمثِّل برنامجا إصلاحيّا وسياسيّا وإداريّا متكاملا فهي ثورة موجَّهة إلى المنصور. ويظيف الأستاذ طه حسين: إنّها وحدها –أي رسالة الصّحابة– السّبب في قتل ابن المقفّع، وفي هذه الرِّسالة نجد تشريعا جديدا من عمل الكاتب يقترحه على الخليفة ليعمل به في أمورٍ شتّى كان أهمّها أمر القضاء الذي كثرت فيه الأقوال، وأصبحت بسببه الدّماء مباحة مرّة، وكان من حقِّها أن يُحقَن، ومحرّمة أخرى وقد كان من حقِّها أن تُهدر إلى غير ذلك[2]. وفي هذا يضيف **محمّد كردعلي** أنّ **رسالة الصّحابة** تمثِّل أهمّ برنامج إصلاحيٍّ سياسيٍّ وإداريٍّ متكاملٍ، وهذا البرنامجُ يشمل الجند والقضاء والنِّظام الماليَّ والحياة الاجتماعيّةَ وعلاقة الأمر بأقاليم الدّولةِ ثمّ السّلطة السياسيّة وقمّتُه الخليفةُ وصحابتُه[3].

ولربّما كان السّبب الحقيقيُّ **كليلة ودمنة**[*] الذي يمثِّل «**جدليّة الصِّراع بين القوى التي تتنازع البقاء، كما تتنازع السّلطة ذاتها**»[4].

فقد كان ضحايا المنصور كثيرين جدا قَتَلَهم بالظنّة وتذرّع في قتلهم بتهمة الزّندقة ...ومَن يدري لعلّ ابن المقفّع لم يجد طريقة يصلح بها اعوجاج الخليفة ويتشفّى لنفسه بها إلاّ أن ينقل إلى النّاس كتاب كليلة ودمنة وهو يرجو أن يقرأه الخليفة فيعدل عن غيِّه، وأن يقرأه غيرُه فيتسلّى بلهوه[5].

1– دومينيك وجانين سورديل: **الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي**، ترجمة: حسين زينة، ج1، ط1، دار الحقيقة، بيروت، 1980، ص184.

2– ينظر: حمزة عبد اللطيف: **ابن المقفع**، ص288 .

3– ينظر: محمد كردعلي: **رسائل البلغاء، رسالة ابن المقفع في الصحابة**، ط2، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1946، ص120.

*– يرى الباحث خليل أحمد خليل أنّ أخطر أبواب كلية ودمنة باب برزويه، الذي ينتقد فيه ابن المقفع الأديان.

4– خليل أحمد خليل: **رموز الوعي السياسي في كليلة ودمنة**، مجلة دراسات عربية، ع1–18، دار الطليعة، بيروت، نوفمبر1981، ص11.

5– ينظر: حمزة عبد اللطيف: **ابن المقفع**، ص299 .

ولكنّه لم يتوقّف عن الكتابة فهو يؤمن بأنّ خروج الأمّة من غفلتها وسباتها يبادر إليه الأدباء والفلاسفة والعلماء، فكان اِبن المقفّع مصلحا سياسيّا ومفكِّرا اِجتماعيا، وهو في هذا المجال على حدِّ تعبير الباحث **جوتياين**(*) «**رجل من طراز معدنِ اِبنِ خلدون وميكافيله**»[1].

لقد جاءت أفكار **الأدب الكبير** مرتّبة خاضعة لسلطان العقل «**وما الذي كنتَ تنتظره من عقلٍ متحضِّرٍ كعقل صاحبنا مشحونٍ بكلِّ هذه المثل والآراء، أليس من شأنه أن يفاضل على هذا النّحو؟ أليس من شأنه أن يخضع كل شيء لسلطان العقل**»[2].

ويؤكِّد الكثير من الباحثين أنّ اِبن المقفّع يستعمل في لغته الدِّقّة والضّبط والأسلوب المنطقيّ العقليّ، لكن بطريقة بسيطة بعيدة عن التّعقيد « **فلغة اِبن المقفّع لها قيمة دلاليّة وحركيّة بارزة تؤكِّد ما بلغته من سمات الدِّقّة والضّبط والمضمون الذِّهنيّ والمنطقيّ**»[3] كما أنّ إخباريّة لغة اِبن المقفّع تلوح حسب ما تؤدِّيه التّراكيب وهي ذات خاصيات أهمّها: العقليّة والفلسفيّة والمنطقيّة في نظام لغويٍّ، له درجاتُه من حيث التّركيب والبساطة واِنسجامه في سياقٍ تحتلّ فيه العناصر مكانتها بمدى تقابلها مع غيرها[4].

لقد كان اِبن المقفّع موفور الحظّ من وضوح العبارة وظهور الحجّة وخفّة الرّوح والقدرة على الإفهام، فكان خطابه فاعلا في حياة المجتمع العربيِّ الإسلاميِّ

---

*- جوتياين: باحث إنجليزي له دراسات في التاريخ الإسلامي والنّظم الإسلامية حقّق رسالة الصّحابة لاِبن المقفّع وأشار إلى أهميّة هذا المفكِّر وأطلق عليها نقطة التحوّل في تاريخ الدّولة الإسلاميّة.

1- س.د.جوتياين: **دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية**، ترجمة وتعليق: عطية القوصي، وكالة المطبوعات، الكويت، 1980، ص57.

2- المرجع نفسه، ص95.

3- عاشور المنصف: **التّركيب عند اِبن المقفّع في مقدِّمات كليلة ودمنة، دراسة إحصائية وصفيّة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص80.

4- ينظر: المرجع نفسه، ص292.

على المستويات: الاِجتماعي والدينيّ والسياسيّ، وإلى أيِّ حدٍّ كان خطابه هذا ذات وظيفة نفعيّة وغاية عملية من تغيّرٍ في المعتقد واِنتصار لمذهب، غايتُه التّعليمُ والإفهامُ والتّهذيبُ والإصلاحُ والحثّ.

والسّؤال الذي نطرحه: هل أثّر اِبن المقفّع على متلقِّي عصره فقط، أم هذا التّأثير اِمتدّ إلى الغائب ؟ ما نرجِّحه نحن أنّه أثّر على بقيّة المتلقِّين، لأنّ خطابه تتعدّد فيه مستويات التلقِّي فبالإضافة إلى التّأثير على متلقِّي عصره أثّر أيضا على متلقِّي بقيّة الفترات الزّمنيّة المتعاقبة المتمثِّل في القارئ الباحث والنّاقد، فهذا الأخير يتعدّد بتعدّد الأزمنة والأمكنة، وهنا يتجلّى التّواصل مع القاريء غير المطّلع على **الأدب الكبير** فبمجرّد قراءته يحدث التّفاعل بينه وبين ما جاء في الكتاب خاصة إذا كان لدى هذا المتلقِّي الخلفيّة المرجعيّة التي أُنجز فيها الكتاب.

لعلّ خير ما نستشهد به ما قاله حين شاهد قلّة اِنضباط الجند يقول في برنامجه الذي وضعه في **رسالة الصحابة** «**لو أنّ أمير المؤمنين كتب أمانا معروفا بالغا وجيزا محيطا بكل شيء، يجب أن يعمل به وأن يكفُوا عنه بالغا في الحجة قصيرا عن الغلو يحفظه رؤساؤهم حتى يقودوا به دهماءهم ويتعهّدوا به منهم من دونهم عرض النّاس، لكان ذلك إن شاء الله لِرأيهم صلاحا...**»[1] فهنا يدعو إلى وضع قانون داخليٍّ للجند يكون بمثابة الميثاق والعهد الذي يسير عليه الجند في أخلاقهم وعلاقاتهم بالرعيّة ودورهم في الدّولة.

ولمّا كان **المنصور** لا يثق في أحد لم يعر **رسالة الصّاحبة** أيَّ اِهتمام، أمّا **المهدي**[*] فكان على العكس منه فيما يبدو، فاِطّلع عليها بدقة وعناية وقام في الواقع بتنفيذ بعض ما جاء فيها من توصيات...وبناء على هذا عَيَّن المهدي مراقبا في كلِّ مصلحة حكوميّة ثم عيّن مراقبا عاما على رأسهم جميعا[2]. كما نجد أفكار اِبن

1- محمد كردعلي: **رسائل البلغاء، رسالة ابن المقفع في الصحابة**، ص120.

*- عُرف المهدي باِضطهاده للزّنادقة وتعوّد أن يقول: إنّه لم ير مطلقا كتاب زندقة إلاّ ويُرجع إلى اِبن المقفّع.

2- ينظر: محمد عبد الحي محمد شعبان: **الدولة العباسية والفاطمية**، د.ط، دار الأهلية للنشر، بيروت،1981، ص38.

المقفّع عند **المرادي** في كتابه "**أدب الأمارة**" الذي يُعتبر «**عالة على الأدب الكبير وبعبارة أخرى أنّه لا يفعل في كثير من الأحيان غير وضع عناوين وأبواب لفقرات ترد في الأدب الكبير لِابن المقفّع مضيفا روايات وأحاديث وأمثالا أو قصصا من كليلة ودمنة**»[1].

إنّ أفكار اِبن المقفّع أسهمت في تغذية الفكر العربيّ في مختلف عصوره، لقد كانت لأفكارِ اِبن المقفّع صدى في اللاّحقين من رجال الفكر والرأي، ليس في الأسلوب فحسب بل في الموقف والرأي في شؤون الفكر والأدب والسياسة وحتى في شؤون الجيش وشؤون الحكّام والمحكوم، ممّا نجد طلاله في أكثر من عمل لمفكرين لاحقين، ربّما كان من بينهم اِبن العنابي الجزائري (1189-1267هـ/ 1775-1851م) في المتأخّرين الذي عالج شؤون الحكم والجيش من زاوية ذات صلة في جوانب من فكر اِبن المقفّع وآرائه في أكثر من قضية، محورُها ضرورة الاِهتمام بشؤون الجيش وبشكل أخص: الحرص على إبعاده عن النّفوذ في الحياة السياسية والاِقتصادية كالحرص في بلاطات الحكام على إشاعة العدل في الرّعية، وإنصاف النّاس والاِنتصار للمظلوم والضّرب على يد الظّالم وسدّ الباب على المتآمرين والمتعلقين، وتطهير ساحة الحكم من بطانات السّوء الّتي يسبّب وجودها حول الحاكم كلّ الضرر، هذا مع الإلحاح على تكريس قيم الجدّ والنّزاهة والصّدق والإخلاص في العمل والنّصح الصّادق والصّدوق في الرّأي[2] والحقّ أنّ هذا كلّه صالح لكلّ الشّعوب وحكّامها. ويبقى فهم الخطاب وتأويله أمرا نسبيا يختلف من شخص لآخر حيث يلفت اِنتباهنا إلى عملية تلقّي النّصوص وتفاعل القارئ المستقبل لها، حيث يمكن أن تتوافق أهدافه مع أهداف الكاتب (مؤلّف النّص) كما يمكن ألاّ تتوافق[3].

1- محمد الأمين بلغيث : **النظرية السياسية عند المرادي وأثرها في المغرب والأندلس**، د.ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989، ص22.

2- ينظر: عمر بن قينة: **الرؤية الفكرية في الحاكم والرعية لدى ابن المقفع**، ص47-48.

3- ينظر: خولة طالب الإبراهيمي: **اللّغة والأدب**، مجلة تصدر عن الجامعة المركزية، الجزائر، عدد خاص بملتقى علم اللّغة، ع12، 1997، ص117.

يتّعظ ويستفيد من كتابات اِبن المقفّع القارئ الذي يعتبر غائبا آنذاك، وبذلك ينطلق في تحقيق منفعته تارة ومنفعة الغير تارة أخرى، بل قد لا ينتفع ذاتيّا بقدر ما ينتفع القارئ منه لأنّ ما يأخذه هذا القارئ هو عصارة كلِّ ما جمعه الكاتب سواء من تجربته الشّخصية أو من تجارب الآخرين، وتأتي هذه المنفعة آجلة أم عاجلة، فتكون آجلة إن حافظ عليها المرسل بكتابتها وتدوينها ليجعلها في مرجع خطيٍّ موجّهٍ إلى مخاطبين معاصرين لزمان الخطاب وإلى آخرين غائبين ساعة كتابة الخطاب فالكتابة تضمن الثّبات والبقاء، إضافة إلى إعطاء الحرية التّامة للكاتب في مخاطبة القريب والبعيد يقول الماكري «**اِستعمال القلم أجدر أن يحظى الذِّهن على تصحيح الكاتب من اِستعمال اللِّسان على تصحيح الكلام، وقالوا اللِّسان مقصور على القريب الحاضر والقلم مطلق في الشّاهد والغائب للغابر الحائن مثله للقائم الرّاهن...والكتابُ يقرأ بكلِّ مكان ويدرس في كلِّ زمان...واللِّسان لا يعدو مستمعه ولا يتجاوزه على غيره**»[1].

وفي الأخير، رأينا أن نعود إلى أصل اِبن المقفّع الفارسيّ ومدى تأثيره على شخصيّته كأديب، ونرى في عدِّه مستشرقا كباقي المستشرقين مغالاة وعدم إنصاف لأنّ الرّجل تربىّ في بيئات عربيّة ونشأ فيها وهم لا ينشأون في بيئات عربية، ولا ينقلون آثار قومهم الأدبيّة إلى اللّغة العربية، في حين أنّ اِبن المقفّع نقل عن الفارسية إلى العربية وهم لم يوظِّفوا في الدّواوين العربيّة ولم يتولّوا كتابة الرّسائل السياسيّة الرّسمية بالعربيّة على نحو ما كان يقوم به اِبن المقفّع «**فاِبن المقفّع فارسيّ شديد التّمسّك بفارسيّته يريد أن يقلب الوضع العربيّ في السّياسة والحكم والعادات وليقيم مكانه وضعا فارسيّا وقد أنشأ عدّة كتب في هذا الصّدد وكانت رسالة الصّحابة وكتاب كليلة ودمنة من أقوى ما وجّهه إلى العقليّة العربيّة ومن أقوى ما رمى به أساليب السّلطان العربيّ ومقوِّمات المجتمع العباسيِّ**»[2].

1- محمد الماكري: **مدخل إلى اِنسجام الخطاب**، ص52.

2- الفاخوري حنّا: **منتخبات الأدب العربي**، ص187.

لقد اِستطاع اِبن المقفّع أن يملأ أواني العربيّة بمادّة أجنبيّة غزيرة دون أن يُحدِث فيها اِنحرافا من شأنه أن يجرّ ضربا من الاِزدواج اللّغويِّ، إذ من المعروف أنّ لكلِّ لغة صياغتها وأنماطها الخاصّة في التّعبير، فلقد اِستطاع اِبن المقفّع أن يحتفظ للعربيّة في ترجماته بمقوِّماتها الأصليّة، كما اِستطاع الملاءمة بين الأخيلة والصّور الفارسيّة وذوق اللّغة العربيّة، بحيث لا نحسّ عنده نُبُوًّا ولا اِنحرافا، ممّا يشهد له بقدرته البيانيّة وأنّه اِستطاع أن يجوز لنفسه السّليقة العربيّة التّامّة بكلِّ شارتها وسماتها اللّغويّة[1].

هذه المعرفة الخلفيّة تجعل العلاقة أكثر قوّةً بين القارئ وبيــن النّص وتُوصلنا إلى اِستكشاف العالم المثاليِّ الذي يدعو إليه اِبنُ المقفّع.

1- ينظر: شوقي ضيف: **العصر العباسي الأول**، ص522.

الخاتمـــــة:

في نهاية هذا البحث يمكن أن نستنتج ما يلي:

- إنّ القارئ **للأدب الكبير** يحسّ بوجود خطاب نصيحة، لأنّه يشخِّص الآفة التي كان يعاني منها عصره، و في ذات الوقت يصف العلاج والدّواء، حتّى يأخذ به المتلقِّي.
- لمّا كان المتلقِّي هو محور الحجاج، توجّه اِبن المقفّع إلى القارئ الأوّل بتمريره خطابا مضمرا وضمنيّا تميّز بالدقّة والصّواب والدّهاء والحيلة حتّى تكون له منفعة تغيير الظّروف السياسيّة والاِجتماعية وإلى القارئ الثّاني بكلِّ براعة واِعتذار وذكاء وبحجج تقنعه وتؤثِّر عليه وتعرِّفه بما كان يجهل.
- لم يكن اِبن المقفّع أديبا كاتبا فحسب بل وكان بلاغيا، وللبلاغيِّ قدرة على التّأثير والإقناع لأنّه يتحاشى الألفاظ الغريبة والمعاني البعيدة والمجاز فجمهورُه المتلقِّي تختلف مستوياته، وليتولّد الإقناع عند المرسل إليه بالحجاج فإنّ أوّل ما ينصبّ عليه اِهتمامه هو البصر بالحجّة، كما يختار اِبن المقفّع من الحجج ما يناسب السِّياق ثم يصوغها في قالب لغويٍّ مناسبٍ ليخاطب بها عقل المرسل إليه، فلا يقصد وراء الحجاج إلاّ التّأثير، لذا نجد أنّ اِبن المقفّع يزيل كلّ العراقيل التي بإمكانها إبعاد المتلقِّي عن تأويل الخطاب، حتّى يمكنه التّفاعل معه لأنّ الشّيء الذي يجعل خطابا ما يؤثِّر على المتلقِّي هو إذا كان هذا الكلام راقيا يبعث اللّذّة والمتعة الأدبيّة لدى القارئ.
- إنّ القارئ للأدب الكبير لِابن المقفّع، مهما كان المصدر الذي اِستقى منه ما أورده، فيه من الحكم والمواعظ والإرشاد والنّصائح، لا يكاد يتردّد لحظة في أنّ صاحبها كان على جانب عظيم من حسن الأدب ونبل الخلق.

- إنّ المطّلع على الأدب الكبير يستنتج عدّة اِفتراضات مسبقة وعدّة أقوال مضمرة، ويعود ذلك لطبيعة الخطاب ونوعيّة المواضيع المعالجة، فهو لا يستطيع أن يوجّه كلاما مباشرا صريحا لأنّه يخاطب خليفة اِشتهر بالبطش والتّبصّر والسِّياسة الميكافيليّة ألا وهو أبو جعفر المنصور، وغير بعيد أن يكون هذا المصلح صرعه الظّلم ويكون قتله على يد هذا الخليفة.
- من خلال قراءاتنا لفكر اِبن المقفّع، فهو يريد أن يُخضع كلّ شيء لسلطان العقل.
- برزت كلٌّ من صورة الحاكم والمحكوم عند اِبن المقفّع مثالية إنسانيّة فصلاحُ المجتمع لن يكون إلاّ من صلاح ولاّته خيِّرة عالمة، وصلاحُ هذه من صلاح الحاكم الذي عليه أن تبقى عينُه ساهرة أمام الاِنحراف والضّالِّين.
- لقد كان الحاكم والمحكوم محور حديثه سياسةً وأخلاقًا واِنضباطًا.
- كان اِبن المقفّع ضدّ اِستبداد الحكّام.
- كان موضوع الأدب الكبير في المعاملات والاِجتماعية العامّة وما يحدث في مملكة الإنسان.
- نبّه اِبن المقفّع إلى المخاطر القادمة أو المحدقة بالأمة والدولة عبر شيوع الآفات الاِجتماعية وفساد الحكم والحاكم، فكانت الدّعوة للحاكم للسّهر على الرعية وحسن التقرّب منها والحرص على تولية ذوي الصّلاح والجدّية والإخلاص عليها والإيثار لها والعمل برأيها العام لدرء المفاسد وإقامة العدل وتنفيذ الأحكام الشّرعية بالتي هي أقوم في اللّين وفي القوة وحسب مقتضى الحال.

- ألحّ ابن المقفع على وجوب الطاعة على الرعية لحاكم عادل منضبط والإخلاص في تعاونها معه، والعمل لمنهج واضح ينهض على قوّة وصلاح الأمة في نظام سياسي ذي نهج حضاري.

- إنّ ابن المقفّع كان يودّ أن يضع رسالة مهمّة، وقد تكون هذه الرِّسالة هي التي قتلته في الأخير.

- تهذيب النّفس عن طريق العقل، التّعلّم، الفلسفة، الدِّين والإيمان بقضايا إنسانيّة.

- كان ابن المقفّع يصرّ على الثّنائية (السّلطان والعقل) وقد تحدّث عنها بصورة كبيرة ومنه علاقة الحكم بالعقل، فكان يقدِّم (العقل/ العلم) في جميع خطاباته.

- التّعلّمُ والخبرةُ تجعل العقل أداةً يوصل إلى الغاية فلكلِّ إنسانٍ حاجة ولكلِّ حاجة غاية والسّبيلُ إلى تلك الغاية العقل.

- نلمس عند ابن المقفّع توازنا عميقا بين العلم والعقل وبين الفكر والعمل.

- تجاوز الأدب الكبير عصره ليكون موضوعُه قضايا إنسانيّة يتحدّث فيه ابن المقفّع لكلِّ الشّعوب لكلِّ الأمم ولكلِّ الأفراد على اختلاف أزمنتهم.

- حيث يعرض ابن المقفّع قضايا معيّنة، فيكون لحساب قضيّة وكأنّه يؤمن بها وبالتّالي ينفصل عن أخرى، فابن المقفّع كان يوازي بين هذه المواقف ليعلى من واحدة ثم يلجأ إلى أخرى حتّى يستطيع أن يبقى قائما عمّا كان.

- رغم أنّ هذا الكتاب متناهٍ في القدم إلاّ أنّه احتوى على بعض الوظائف كالوظيفة التّعبيريّة والإخباريّة والإنشائيّة- ممّا يدلّ على قيمته- التي توصّل جاكوبسون إلى صياغتها. فهي تخدم سياق الكلام ممّا زاد الأدب الكبير ثراءً وإفادةً للمتلقِّي ليس له بدًّا منها.

- إنّ اِستعماله لأفعال الكلام وتخصيصه للإنشاء (الأمر والنّهي) الذي غرضهما النّصح والإرشاد قد خَدَما ما كان يسعى إليه ويقصده اِبن المقفّع، ولقد أهمل الأفعال الكلاميّة الأخرى التي لا تخدم السِّياق إلاّ ما جاء عفويّا أو قاصدا منه الإقناع كالاِستفهام مثلا. ولقد هيمن الخبر بنفس كثرة الإنشاء ممّا تناسب مع نوعيّة الموضوع المعالَج و نوعيّة المخاطبين الذين وجّه إليهم الخطاب.

- يعدّ اِبن المقفّع بطل الثّقافة الفارسيّة التي جعل منها عنصرا هامّا من عناصر الثّقافة الإسلاميّة ولولا جهود هذا الرّجل في نقل التّراث إلى اللِّسان العربيِّ لَما اِستطاعت الثّقافة الفارسيّة أن تشقّ طريقها إلى هذه الغاية وتصبح جزءا هامّا من أجزاء الثّقافة الإسلاميّة وجزءا هامّا كذلك في حضارة العالم الإسلاميِّ.

- لقد كان ابن المقفّع من ألمع الشّخصيّات في بداية العصر الكلاسيكيّ للأدب العربيِّ، لم يكن عربيا، نهلت روحه ممّا كانت تحمله الحضارة الإيرانية – التي ينتمي إليها– من قيم ثقافية واِجتهد في تعريفها للعرب الذين فتحوا بلاده وأطاحوا بدين أجداده، وعلى هذا الاِعتبار يمكن لنا أن نعدّ اِبن المقفّع أحد رواد الحركة الشّعوبية، وإن كنّا لا نجد أيّ تصريح له على تفوّق الشّعوب حتى الفرس والهنود والعرب.

- إنّ فضل اِبن المقفّع على العربية عظيم، فهو أول من أدخل الحكمة الفارسيّة والهنديّة ومنطق اليونان وعلم الأخلاق وسياسة الاِجتماع، فذلّل أوضاعها لمباحث عقلية ووطأ السّبيل للفارابي واِبن سينا من بعده.

- إنّ اِبن المقفّع ساهم في الرّبط بين الحضارتين، فكان مصدرا للتّلقين المعرفيِّ والتواصل الفكريِّ بجهوده هذه، وقد شهد له التاريخ بها.

- قتل المنصور اِبن المقفّع لأنّه حاور العقل بالعقل والمنطق بالمنطق في محيط يملأه الفساد الاِجتماعي يتّسع للدّجالين واللاّهين العابثين، وليس إلاّ هذا

فحسب بل وسياسيّ بحث، يرجع إلى مسائل حسّاسة كالبيعة والخلافة وأنّ المنصور ينخلع منها إذا عذر، وصدقت فيه مقولة الخليل حين قال: علمه أكبر من عقله.

- فكرُ اِبنِ المقفّع فكرٌ حضاري إصلاحي طموح إلى الخير العام والعدل والإنصاف، والفضيلةُ تعمر حياة النّاس بكل وجوهها: السياسية، الاِقتصادية والاِجتماعية.

- إنّ اِبن المقفّع يربّي المحكوم على السلوك السّوي ممّا يجعل الحاكم قويا يُهاب تقديرا لا خوفا، ويُحترم إجلالا لا نفاقا، قدوة لمن دونه (ولاة ورعية) فيضمن بذلك ولاء رعية وقوّة نظام.

- أمّا عن زندقته فينقضها كلام اِبن المقفّع نفسه في آثاره، وهو لم يضرّ أو يمس بالإسلام، بل وكانت أفكاره ذات نفع للحاكم والمحكوم لو عملوا بها، إلاّ أنّ عدم ذلك اِنتهى إلى تفسّح الحكّام وعبثهم ولهوهم وتقريبهم ذوي اللّهو والبطالة وإبعادهم لرجال الفكر والرأي عن صنع القرار، ممّا يعتبر من أسباب خراب الملك بتعبير اِبن المقفّع نفسه.

- ما توصّلنا إليه كنتيجة هو أنّ القوم الذين مجّدهم اِبن المقفّع واِفتخر بهـم ودعا إلى الاِحتذاء بهم هم أجداده الفرس، لأنّه كان فارسيّ الأصل عاش في المجتمع العربيِّ الذي تميّز بالفساد في أنظمة حكمه، فكان يراهم لا يصلحون لتسيير أمّة، وأخذُهم لجهاز الحكم ظلمٌ.

- من خلال قراءاتنا لبعض مؤلّفات اِبن المقفّع والاِطِّلاع على بعض آراء النّقاد فيما كتبه نرى أنّ اِبن المقفّع يُعدّ أحد زعماء المدرسة الكتابيّة الأولى في العهد العباسيِّ، كما يعدّ أكبر بلغاء عصره ورائد النّثر الفنيِّ العربيِّ ومثبِّت أسسه الأولى. كما يعدّ أوّل عالم ومفكِّر تناول الموضوعات العقليّة بإنشاء رفع به لغة الأدباء، فحبّب دراسة الحكمة بجمال أسلوبه، فهو يجمع

بين الجزالة والوضوح والإيجاز، فهو يتوخّى الإفهام أولا، وبلاغتُه في كثرة إفهامه.

- إنّ اِنتاجات اِبن المقفّع سواء أدبه الكبير أو الكتب الأخرى تعتبر ثروة عربيّة يستمدّ منها القارئُ المثلَ والحكمةَ وتطمئنّ إليها النّفس ويرتاح إليها الخاطر فنجد في الأدب الكبير الموعظة والحكمة والمثل والأخلاق، فهذا من القول أنجح مطلبًا وأقرب مذهبًا.

- وفي الأخير، نقول أنّ الأدب الكبير هو نتاجٌ لعقل متطوّرٍ وفكرٍ متقدّمٍ ونفسٍ نقيّةٍ وطبعٍ متخلّقٍ، جَمَعَ بين عدّة جوانب جعلت من هذا المصدر مادّة ثريّة يرجع إليها القارئ والباحث فيجد فيها ضالّته فما نشهد له به هو عبقريّته الفذّة التي جعلته يبدع ويمتع في الوقت نفسه.

- إنّ الأدب الكبير يجمع الفلسفة والأدب والحكمة.

- لمّا كان الأدب الكبير خالدا، ضمّن التّواصل الفكريَّ والتّلقين المعرفيّ للآخرين.

قائمة المصادر والمراجع

I-المصادر والمراجع.

- **القرآن الكريم.**

- اِبن المقفّع: **الأدب الكبير**، دار الجيل، د.ط، بيروت، د.ت.

- اِبن قيّم الجوزيّة: **بدائع الفوائد**، د.ط، المطبعة المنيريّة، مصر، د.ت.

- اِبن وهب، **البرهان في وجوه البيان**، د.ط ، المكتبة العلميّة، بيروت، 1980.

- التّكريتي ناجي: **الفلسفة الأخلاقيّة الأفلاطونيّة عند مفكّري الإسلام**، ط1، دار الأندلس للطّباعة والنشر والتّوزيع، 1979.

- ج. دلاّش: **مدخل إلى اللّسانيات التّداولية**، ترجمة: محمّد يحياتن، د.ط، الجزائر، 1993.

- الجاحظ: **البيان والتّبيين**، تحقيق وشرح: عبد السّلام هارون، ط4، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت.

- جميل عبد المجيد: **البلاغة والاِتّصال**، د.ط، دار غريب للطباعة والنشر والتّوزيع، القاهرة، 2000.

- حمزة عبد اللّطيف: **اِبن المقفّع**، ط3، دار الثّقافة العربيّة للطّباعة، 1965.

- حميد الحمداني: **القراءة وتوليد الدّلالة، تغيّر عاداتنا في قراءة النّص الأدبيّ**، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2003.

- حنّا الفاخوري: **اِبن المقفّع، نوابغ الأدب العربيّ**، ط1 دار المعارف بمصر، د.ت.

- ـــــــــــــ: **منتخبات الأدب العربيّ**، ط4، منشورات المكتبة البوليسيّة، بيروت، 1969.

- دومنيك وجاتين سورديل: **الحضارة الإسلاميّة في عصرها الذّهبي**، ترجمة حسني زينة، ج1، ط1، دار الحقيقة، بيروت، 1980.

- س.جواتياين: **دراسات في التّاريخ الإسلاميِّ والنّظم الإسلاميّة**، ترجمة وتعليق: عطيّة القوصي، د.ط، وكالة المطبوعات، الكويت، 1980.

- السّكاكي: **مفتاح العلوم**، د.ط، دار الكتب العلمية، د.ت.

- سيزا قاسم ناصر حامد أبو زيد: **مدخل إلى السِّيميوطيقا، أنظمة العلامات في اللّغة والأدب والثّقافة**، د.ط، دار الياس العصرية، القاهرة، 1986.

- شربل داغر: **الشّعرية العربيّة الحديثة- تحليل نص**، ط1، دار توبقال، المغرب، 1988.

- شوقي ضيف: **العصر العبّاسيّ الأوّل**، ط2، دار المعارف، د.ت.

- طه حسين: **من حديث الشّعر والنّثر**، د.ط، دار المعارف بمصر، د.ت.

- طه عبد الرّحمان: **التّفكير الحضاريّ في الحضارة العربيّة**، د.ط، الدّار العربيّة للكتاب، تونس، 1981.

- ـــــــــــــــ: **اللِّسان والميزان أو التّكوثر العقليّ**، ط1، المركز الثقافي العربي، المغرب، 1998.

- ـــــــــــــــ: **في أصول الحوار وتجديد علم الكلام**، ط2، المركز الثّقافي العربي، 2000.

- عاشور المنصف: **التّركيب عند اِبن المقّفع في مقدّمة كليلة ودمنة**، دراسة إحصائية وصفيّة، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1982.

- عبد الحميد السيد: **دراسات في اللسانيات العربية**، ط1، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، 2004.

- عبد السّلام المسدِّي: **الأسلوبيّة والأسلوب**، ط2، دار تونس للطّباعة، د.ت.

- عبد السّلام عشير: **عندما نتواصل نغيِّر**، مقاربة تداوليّة معرفيّة لآليات التّواصل والحجاج، د.ط، إفريقيا الشرق، المغرب، 2004.

- عبد القاهر الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، تحقيق: محمد رضوان الداية وفايز الداية، مكتبة سعد الدين، ج1، ط1، دمشق، 1987.

- ـــــــــــــــــــ: **دلائل الإعجاز**، د.ط، سلسلة الأنيس، مونم للنّشر، الجزائر، 1988.

- ـــــــــــــــــــ: **دلائل الإعجاز**، شرح: محمد التنجي، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 2005.

- عبد الله شريفي زبير دارقي: **الإحالة في علم البلاغة**، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون، الجزائر، 2004.

- عبد الهادي بن ظافر الشِّهري: **اِستراتيجيات الخطاب–مقاربة لغويّة تداوليّة**، ط1، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، 2004.

- عمر أبو نصر: **آثار اِبن المقفّع**، د.ط، سلسلة من التّراث العربيِّ، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1996.

- عمر بن قينة: **الرّؤية الفكريّة في الحاكم والرّعية لدى اِبن المقفّع**، ط1، دار أسامة للنّشر والتّوزيع، عمّان، 2000.

- فرانسوار أرمينكو: **المقاربة التداولية**، ترجمة: سعيد علّوش، د.ط، مركز الإنماء القومي، د.ت.

- قادة عقاق: **السِّيميائيات العربية، قراءة في المنجز التّراثي**، مخبر النّقد والدّراسات الأدبية واللِّسانية، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، مكتبة الرّشاد للطِّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، 2004.

- محمّد أحمد نحلة: **علم اللّغة النّظامي، مدخل إلى النّظرية اللّغوية عند هاليدي**، ط2، كلية الآداب جامعة الإسكندرية، 2001.

- محمّد الأمين بلغيث: **النظرية السياسية عند المرادي وأثرها في المغرب والأندلس**، د.ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.

- محمّد الصّغير بنّاني: **النّظريات اللّسانية والبلاغيّة عند العرب، النّظريات اللّسانية والبلاغيّة والأدبيّة عند الجاحظ من خلال البيان والتّبيين**، دار الحداثة، ط1، د.ب، 1986.

- محمّد العمري: **في بلاغة الخطاب الإقناعيِّ، مدخل نظريّ تطبيقيّ لدراسة الخطابة العربيّة، الخطابة في القرن الأوّل نموذجا**، د.ط، دار الثقافة للنشر والتّوزيع، الدار البيضاء، 1986.

- محمّد جهاد جميل، سمير روحي الفيصل: **مهارات الاِتِّصال في اللّغة العربيّة**، د.ط، دار الكتاب الجامعيّ، العين، الإمارات العربية المتّحدة، 2004.

- محمّد خطابي: **مدخل إلى اِنسجام الخطاب**، ط1، المركز الثقافيّ العربيّ، الدار البيضاء، 1991.

- محمّد عبد الحي محمد شعبان: **الدولة العباسية والفاطمية**، د.ط، دار الأهلية للنشر، بيروت، 1981.

- محمّد علي الصابوني: **صفوة التفاسير**، المجلد 2، دار القرآن الكريم، بيروت، 1981.

- محمّد كردعلي: **رسائل البلغاء، رسالة اِبن المقفّع في الصّحابة**، ط2، مطبعة لجنة التّأليف والنّشر، القاهرة، 1946.

- محمّد مفتاح: **تحليل الخطاب الشِّعري، اِستراتيجيّة التّناص**، ط3، المركز الثقافي العربيّ، الدار البيضاء، 1992.

- محمود سليمان ياقوت: **علم الجمال اللغوي (المعاني، البيان ، البديع)**، الجزء الأول، د.ط، دار المعرفة الجامعيّة، د.ب، 1995.

II- المعاجـــــم:

- اِبن منظور: **لسان العرب**، المجلّد III/II، د.ط، دار صادر، بيروت، 1994.

- دومنيك مانغونو: **المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب**، ترجمة: محمد يحياتن، ط1، منشورات الاِختلاف، الجزائر، 2005.

- مجدي وهبة: **معجم مصطلحات الأدب**، د.ط، مكتبة لبنان، ساحة رياض الفتح، بيروت، د.ت.

III- الرّسائل الجامعيّة:

- خليفة بوحادي: **خصائص التّركيب اللّغوي في ديوان بوبات النّور- دراسة في الوظيفة التداولية**، رسالة دكتورة، جامعة قسنطينة، 2006.

- عمر بلخير: **الخطاب تمثيل للعالم، مدخل إلى دراسة بعض الظّواهر التّداولية في اللّغة العربية**، رسالة ماجستير، الجزائر، 1997.

- فتيحة بوسنّة: **اِنسجام الخطاب في مقامات جلال الدِّين السّيوطي**، رسالة ماجستير، جامعة تيزي وزو، 2007.

- كميلة واتيكي: **كتاب الاِمتناع والمؤانسة لأبي حيّان التّوحيدي- بين سلطة الخطاب وقصدية الكتابة**، رسالة ماجستير، جامعة تيزي وزو، 2007.

- يمينة ثابتي: **الحجاج في رسائل اِبن عباد الرّندي- دراسة تداوليّة**، رسالة ماجستير، جامعة تيزي-وزو، 2007.

IV- المجلاّت:

- خليل أحمد خليل: **رموز الوعي السِّياسي في كليلة ودمنة**، مجلّة دراسات عربية، ع1-18، دار الطّليعة، بيروت، نوفمبر1981.

- خولة طالب الإبراهيمي: **اللّغة والأدب**، مجلة تصدر عن الجامعة المركزية، الجزائر، عدد خاص بملتقى علم اللّغة، ع12، 1997.

- عبد السّلام المسدي: **المواضعة والعقد في النّظرية اللّغوية عند العرب**، مجلة المورود، م14-ع1، تصدر عن وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1985.

- علي ملاحي: **اللّغة والأدب**، مجلة تصدر عن الجامعة المركزية، الجزائر، عدد خاص بملتقى علم اللّغة، ع12، 1997.

V- المقـــالات:

- جوزيب بيزا كامبروبي: **وظائف العنوان**، ترجمة: الدّكتور عبد الحميد بورايو، سلسلة وقائع سيميائية جديدة، صادرة عن المطبوعات الجامعية في ليموج، فرنسا، ع82، 2002.

- محمد مفتاح: **المقصد والإستراتيجية**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة بحوث ومناظرات، الدار البيضاء، 1993.

VI- المراجع الأجنبية:

- C.K. Orecchioni: **L'implicite**, Armand Collin, Paris, 1995.
- _____: **L'énonciation de la subjectivité dans le langage**, 2ème édition, Armand Collin, Paris, 1980.

- D. Sperber et D.Wilson : **La pertinence communication et cognition**, édition de Minuit, Paris, 1989.
- George Mounin et autres: **Dictionnaire de linguistique générale**, P.U.F, Paris, 1984.
- Maingueneau: **Nouvelle tendance en analyse de discours**, édition Hachette Paris, 1987.
- _____: **Pragmatique pour le discours litteraire**, édition Bordas, Paris, 1990.
- Marie Noelle Gary – Prieur : **Les termes clefs de la linguistique**, Seuil, Paris, 1999.
- O.Ducrot : **Dire et ne pas dire**, Hermann, Paris, 1988.